



كَيْفَ عَامِلُهُ

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

الْشَّيْخُ مُحَمَّدٌ صَالِحُ الْمُنْجِدِ

③ مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

كيف عاملهم صلى الله عليه وسلم / محمد صالح المنجد . - جدة،
١٤٣٥هـ

٨٦٤ ص؛ ٢٤ سم

ردمك : ٦-١٣٩٩-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية ١. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤ / ٨٢٤

رقم الإيداع : ١٤٣٤ / ٨٢٤

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤ م

جميع الحقوق محفوظة

امتياز التوزيع

مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض

المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٠٠٩٦٦١١٤٨٨٩٠٢٣

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

مجموعة زاد
ZAD GROUP

للنشر

المملكة العربية السعودية

الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة: ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

بَيْنَ
وَإِنَّا لَعَلَّ عَلَى خَلْقِ الْوَحْيِ
اللَّهُ الْمَرْسُ

كلمة الناشر

قصة كتاب كيف عاملهم ﷺ

لكل كتاب قصة ، وقصةُ كتابنا هذا تعود لثمان سنواتٍ خلت، حيث بدأ الشيخ محمد صالح المنجد بإلقاء سلسلة من الدروس الرمضانية بعد صلاة التراويح بجامع عمر بن عبد العزيز بالخبر بعنوان: (التعاملات النبوية مع أصناف الناس)، في عامي ١٤٢٧-١٤٢٨ هـ ، وأكلمها بجامع خادم الحرمين الشريفين بجدة في عام ١٤٢٩ هـ .

ثم عرضها في برنامج تلفزيوني على عدد من القنوات الفضائية بعنوان: (جوانب العظمة في حياة النبي ﷺ)، ثم كان الإصدار الثاني منها بعنوان: (الجوانب الاجتماعية في حياة خير البرية).

وكذلك قدمها الشيخ في البرنامج الرمضاني: (هدى وبيّنات) خلال عامي ١٤٣٢-١٤٣٣ هـ.

ومع اكتمال هذا المشروع، ونظراً للتفاعل والإقبال الذي لمستته المجموعة مع تلك السلاسل والبرامج، وحاجة الناس لمعرفة الهدي النبوي في التعامل مع أصناف البشر مع تنوعهم واختلاف مراتبهم وأحوالهم: عكف الفريق العلمي في مجموعة زاد على إعادة صياغة المادة العلمية الملقاة وترتيبها، واستكمال كتابة منظومة شعرية تلخص مجمل كل موضوع في نهايته.

وحرصنا فيها على جمع الروايات المقبولة من السنة والسيرة النبوية، والاقتصار على ما تناوله الشيخ في الشرح بأسلوب سهل ومختصر بعيداً عن التطويل.

مع توثيق النصوص والآثار، وتقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول، ثم ارتأينا حذف الفصول من داخل الكتاب حتى لا نقطع تسلسل القراءة مع الإبقاء على الأبواب.

نرجو أن يكون هذا المشروع إسهاماً في تجديد عرض السيرة النبوية من خلال استعراض الجوانب الاجتماعية في حياة الحبيب المصطفى ﷺ وهدية في التعامل مع الناس.

نشكر كل من أسهم في هذا المشروع الكبير الذي نرجو أن تنطلق منه مشاريع عديدة، فقد انتهينا -ولله الحمد- من ترجمة الكتاب بنسختين الأولى ترجمة كاملة موجهة للمسلمين، وأخرى مختصرة موجهة لغير المسلمين.

ويسر مجموعة زاد للنشر أن تفتح المجال لتناول موضوعات الكتاب وتفصيله من جوانب تخصصية تربوية واجتماعية، وأن تقوم بنشرها في طبعات قادمة مدجة أو منفصلة.

إن هذا العمل الذي استغرق سنوات عدة تمثل مواسم جميلة عاشها الشيخ محمد صالح المنجد مع طلابه ومتابعيه، كان ثمرتها هذا الكتاب الذي نهديه لقرائنا الأعزاء، فما كان من توفيق فبفضل الله وحده، ولا يخلو عمل من خلل، فجزى الله خيراً من نبهنا عليه.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعاً الإخلاص والقبول، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى إنه قريب

مجيب.

مجموعة زاد

١٤/٤/١٤٣٥ هـ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً.

وبعد،

فلقد كان في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة والمثل الصالح؛ بما من الله به عليه من الخلق الحسن والأدب الجم، فجعل من الاقتداء به سبيلاً إليه لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

لذا ينبغي علينا أن ندرس حياته ﷺ، وكيفية تعامله مع شرائح الناس المتنوعة؛ ليتسنى لنا الاقتداء به بشكلٍ علميٍّ صحيحٍ.

إن كثيراً من الناس يرومون الاقتداء بالنبِيِّ ﷺ، ولكن بغير علم؛ فيفسدون، ولا يصلحون.

لذا فقد حاولنا في هذا الكتاب تتبع معاملات النبي ﷺ مع أصناف الناس، وجمع الأحاديث في ذلك؛ لتكون نبراساً للمقتدين، وحجة للمستئين.

وقسمناه إلى ستة أبواب:

الباب الأول: قدوة العالمين

ويتناول معنى القدوة، وبيان أن الأنبياء هم الذين يقتدى بهم، والحديث عن جوانب الاقتداء بالأنبياء عامةً، وبنبينا محمد ﷺ خاصةً.

وقسمنا هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: الرسول ﷺ القدوة الحسنة.

الفصل الثاني: جوانب الاقتداء بالنبي ﷺ.

الباب الثاني: تعامل النبي ﷺ مع أهله وأقاربه ومن حوله.

ويتناول تعامل النبي ﷺ مع أهله من الزوجات، والأولاد، والأحفاد، والأقارب، ومع من حوله من الجيران، ونحو ذلك.

وقد قسمته إلى سبعة فصول:

الفصل الأول: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته.

وقد شمل هذا الفصل الحديث عند عدة جوانب:

الجانب الأول: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته.

الجانب الثاني: تربية النبي ﷺ لنسائه؛ ليكون قدوةً لنساء المؤمنين.

الجانب الثالث: حلول المشكلات في البيت النبوي.

الفصل الثاني: تعامل النبي ﷺ مع أبنائه، وبناته.

الفصل الثالث: تعامل النبي ﷺ مع أحفاده.

الفصل الرابع: تعامل النبي ﷺ مع أقاربه.

الفصل الخامس: تعامل النبي ﷺ مع الجيران.

الفصل السادس: تعامل النبي ﷺ مع الضيوف، والمستضيفين.

الفصل السابع: تعامل النبي ﷺ مع خواص أصحابه.

الباب الثالث: تعامل النبي ﷺ مع شرائح اجتماعية مخصوصة.

ويتناول هذا الباب تعامل النبي ﷺ مع بعض الشرائح المجتمعية الخاصة التي لها بعض الصفات التي تحتاج إلى تعامل خاص يتناسب مع تلك الصفات.

وقد قسّمته إلى ثمان فصول:

الفصل الأول: تعامل النبي ﷺ مع الخدم والإماء.

الفصل الثاني: تعامل النبي ﷺ مع ذوي العاهات.

الفصل الثالث: تعامل النبي ﷺ مع أصحاب المصائب والبلاء.

الفصل الرابع: تعامل النبي ﷺ مع الفقراء.

الفصل الخامس: تعامل النبي ﷺ مع الأغنياء.

الفصل السادس: تعامل النبي ﷺ مع ذوي الهيئات.

الفصل السابع: تعامل النبي ﷺ مع النابغين.

الفصل الثامن: تعامل النبي ﷺ مع المتخاصمين.

الباب الرابع: تعامل النبي ﷺ مع شرائح دعوية مخصوصة.

ويتناول تعامل النبي ﷺ مع بعض الناس الذين يحتاجون إلى الدعوة، والتأليف أكثر من

غيرهم.

وقد قسّمته إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: تعامل النبي ﷺ مع المسلمين الجدد.

الفصل الثاني: تعامل النبي ﷺ مع المستفتين.

الفصل الثالث: تعامل النبي ﷺ مع الأعراب.

الفصل الرابع: تعامل النبي ﷺ مع العصاة والمذنبين.

الفصل الخامس: تعامل النبي ﷺ مع المنافقين.

الباب الخامس: تعامل النبي ﷺ مع شرائح عامة.

ويتناول تعامل النبي ﷺ مع بعض الشرائح العامة في المجتمع.

وقد قسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعامل النبي ﷺ مع عموم النساء.

الفصل الثاني: تعامل النبي ﷺ مع كبار السن.

الفصل الثالث: تعامل النبي ﷺ مع الصغار.

الباب السادس: تعامل النبي ﷺ مع غير البشر.

وقد قسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعامل النبي ﷺ مع الجن.

الفصل الثاني: تعامل النبي ﷺ مع الدواب.

الفصل الثالث: تعامل النبي ﷺ مع النباتات.

ونسأل الله تعالى التوفيق، والسداد، والقبول.

البَابُ الْأَوَّلُ
قُدْوَةُ الْعَالَمِينَ

الرسول ﷺ القدوة الحسنة

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»^(١).

ولما أرسله الله تعالى رحمة للعالمين وهداية للناس صار المثل الأعلى والقدوة الحسنة للذين يرجون الله واليوم الآخر، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

المراد بالقدوة:

القدوة: اسم لمن يقتدى به، فيقال: «فلان قدوة» إذا كان ممن يأتي الناس خطاه ويتبعون طريقته.

وما أشد حاجة المسلم اليوم إلى التأسّي برسول الله ﷺ، وخاصة مع كثرة الدعاوى الباطلة في هذا العصر الذي يحشد فيه أعداء الله فتن الشبهات والشهوات ليصدّوا عن سبيل الله.

فأردنا في هذا الكتاب أن نتكلّم عنه ﷺ، من حيث كونه إماماً، وقاضياً، وحاكماً، ومصلحاً،

(١) تفسير ابن كثير [٣٩١ / ٦].

ومعلماً، ومربياً، وزوجاً، وأباً، ومديراً، وقائداً، وعاملاً... وغير ذلك من جوانب شخصيته ﷺ، مستبصرين بما ثبت في السنة الصحيحة من ذلك.

فهو القدوة المثل التي ينبغي للمسلم أن يتبعها، ويسير على خطاها؛ فكل ما يفعله، أو يقوله، هو فيه محل أسوة وقدوة.

فبهدهم اقتده:

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالافتداء بالأنبياء من قبله، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: «أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ فأمتته تبع له فيما يشرعه، ويأمرهم به»^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وفي قصص الأنبياء عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بد أن يتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا يأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلموا أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتقن المرتاب، ويتب المذنب، ويقوى إيمان المؤمن، فيها يصح الاتساء بالأنبياء»^(٢).

ومن الأمور التي أمرنا أن نقتدي فيها بأنبياء الله ورسله:

١- القوة في طاعة الله تعالى وعبادته:

وهذه الصفة العظيمة من أبرز ما في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث إنهم أكثر الناس عبادةً، وصلاةً، وإحباتاً لله عز وجل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥].

(١) تفسير ابن كثير [٢/ ١٩٠].

(٢) مجموع الفتاوى [١٥/ ١٧٨].

عن عطاء الخراساني رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «**أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ**»، أي: أولو القوة في العبادة، والعلم بأمر الله.

وعن قتادة رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «أعطوا قوَّةً في العبادة، وبصراً في الدين»^(١).

والشواهد في ذكر عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة، منها:

قوله تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾** [إبراهيم: ٤٠].

وقوله تعالى في مدح إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾** [مريم: ٥٥].

وقوله تعالى في مدح إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾** [الأنبياء: ٧٣].

أما نبينا محمد ﷺ، فالشواهد على كثرة عبادته وقوته فيها كثيرة جداً، مع أنه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فهو الذي قال له ربه عَزَّجَلَّ: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾** [الإنسان: ٢٦].

وقال له: **﴿.... فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾** [مريم: ٦٥].

وقال تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩].

٢- كثرة ذكرهم لله عَزَّجَلَّ، وشدة تضرّعهم ودعائهم له سبحانه مع قوّة عبادتهم:

فكانوا يكثرّون من ذكر الله في كل الأوقات، وكانوا يخبتون لربهم سبحانه، ويتضرّعون له، ويدعون له دعاءً متواصلاً، مع كثرة عبادتهم، وطولها وتنوعها.

(١) مجموع الفتاوى [١٧٠ / ١٩].

وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ كيف كان أنبيأؤه ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم - يتضرعون إليه في قضاء حوائجهم، ويتوسلون إليه بتمام فقرهم إليه ورغبتهم؛ فقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٢) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذِكْرِيَّ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٧-٩٠].

وكان ﷺ شديد اللجوء إلى الله، كثير الدعاء والتضرع وخاصة في الملمات؛ ففي يوم بدر اشتدت مناجاته لربه ومناشدته إياه أن ينصره ومن معه من المسلمين؛ فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَاذَا يَدِيهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِذَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِيهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِذَاؤَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِيهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مَنَاشِدَتَكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيَنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ»^(١).

٣- خشوعهم وبكاؤهم عند ذكرِ الله عزَّ وجلَّ:

فأثنى الله عزَّ وجلَّ على الأنبياء الذين ذكروا في سورة مريم، بقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

(١) رواه مسلم [١٧٦٣].

وكان رسول الله ﷺ أخشى الناس لله، وكان يقول: «والله إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»^(١).

وكان ﷺ يقول: «يا مقلِّبَ القلوبِ ثبَّتْ قلبي على دينك»^(٢).

٤- الاقتداءُ بهديهم في قوَّة العلم بالله عزَّ وجلَّ:

فأنبياء الله ورسله صلى الله عليهم وسلم، وقد أورثهم هذا العلم تمام الإيمان واليقين به سبحانه، هم أعلم الناس بالله.

والعبد كلما كان أعلم بربه كلما كان أشد تعظيماً له وإحباتاً وعبادةً وخوفاً وإخلاصاً ومحبةً. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لا سبيلَ إلى السعادةِ والفلاحِ لا في الدنيا، ولا في الآخرةِ إلا على أيدي الرِّسلِ، ولا سبيلَ إلى معرفة الطَّيِّبِ والخبيثِ على التفصيلِ إلا من جهتهم، ولا ينالُ رضا الله البتَّةَ إلا على أيديهم.

فالطَّيِّبُ من الأعمالِ، والأقوالِ، والأخلاقِ ليسَ إلا هديهم، وما جاؤوا به. فهمُ الميزانُ الرَّاجِحُ الذي على أقوالهم، وأعمالهم، وأخلاقهم توزنُ الأقوالُ، والأخلاقُ، والأعمالُ، وبمتابعتهم يتميَّزُ أهلُ الهدى من أهلِ الضلال.

فالضرورةُ إليهم أعظمُ من ضرورةِ البدنِ إلى روحه، والعينِ إلى نورها، والروحِ إلى حياتها، فأبَّيُّ ضرورةٍ وحاجةٍ فرضتْ فضرورةُ العبدِ وحاجتهُ إلى الرِّسلِ فوقها بكثيرٍ.

وما ظنَّك بمنْ إذا غابَ عنكَ هديه، وما جاءَ به طرفةُ عينٍ، فسَدَ قلبك، وصارَ كالحوتِ إذا فارقَ الماءَ، ووضعَ في المقلاةِ.

(١) رواه البخاري [٢٠]، ومسلم [١١١٠]، -واللفظ له- عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) رواه الترمذي [٣٥٢٢] عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٨٠١].

فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرّسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلبٌ حيٌّ، وما لجرح بميتٍ إيلاّم.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ، فيجبُ على كلٍّ من نصَح نفسه، وأحبَّ نجاتها، وسعادتها أن يعرفَ من هديه، وسيرته، وشأنه ما يخرجُ به عن الجاهلين به، ويدخلُ به في عدادِ أتباعه، وشيعته، وحزبه.

والناسُ في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثِرٍ، ومحرّومٍ، والفضلُ بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضلِ العظيم»^(١).

لماذا نفتدي بالنبي ﷺ؟

١- لأن حياته هي حياة أكمل الناس:

اختاره الله عزَّ وجلَّ عن علمٍ وحكمةٍ، واصطفاهُ على البشر؛ فكان لا بدَّ أن نتعرَّف على هذه الحياة المباركة التي صنعتُ على عينِ الله تبارك وتعالى؛ لعلَّها أن تكون نبراساً لحياتنا، ونجاةً لأنمتنا.

٢- طاعة لأمرِ الله عزَّ وجلَّ:

بالاقتداء به، والتأسي بهديه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

٣- لعصمة الله عزَّ وجلَّ له:

لحفظِ الله عزَّ وجلَّ له، وعصمته له من الزلِّ، ولو وقع منه الخطأ لم يقرَّ عليه، فحريٌّ بمن هذه صفاته أن يقتدى به، وتدرس حياته، ويتعرَّف على هديه.

(١) زاد المعاد [٦٩/١].

٤- في حياته ﷺ العبرُ:

لأنَّ في دراسة حياته أكبرَ العظايتِ والعبرِ؛ سواءً ما يتعلَّق بالإيمانِ والتوحيد، أو فيما يتعلَّق بأخلاقه وسلوكه، أو بهديه ومنهجه، وصبره في الدعوة، والصراعِ مع الباطلِ وأهله.

٥- الاقتداءُ بالنبيِّ ﷺ شرطُ الفلاحِ والنَّصرِ:

فإذا لم تتأسَّ برسولِ الله ﷺ في أقوله وأفعاله وشمائله، ولم تقتفِ أثره؛ فلن نفلحَ أبداً، ولن نتصرَّ أبداً.

٦- النبيُّ ﷺ قدوةٌ في كلِّ أحواله:

ألم يجعلِ الله عزَّجَل من النبيِّ الرجلِ، ومن النبيِّ الزوجِ، ومن النبيِّ الأخِ، ومن النبيِّ الصديقِ، ومن النبيِّ الحاكمِ، ومن النبيِّ القائدِ، ألم يجعلِ الله عزَّجَل شخصيةَ النبيِّ قدوةً لنا في كلِّ أحواله؟

معرفةُ سيرةِ النبيِّ ﷺ ضرورةٌ للاقتداءِ به:

فلا بدَّ إذاً من وقفةٍ متأنيةٍ عند جانبِ الاقتداءِ لتعرف كيف تهدي بهديه؟

كيف تتبعُ سنته؟

كيف يكونُ النبيُّ ﷺ أسوةً لك؟

لا بد لذلك من الاطلاع على جوانب من حياته وسيرته ومواقفه وعلاقاته بأصناف الناس على اختلاف أجناسهم وأحوالهم.



جوانب الاقتداء بالنبي ﷺ

إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ يجد أنها حوت جميع مكارم الأخلاق التي تواطأ عليها فضلاء، ونجباء البشر، ونبلاؤهم.

فهو ﷺ قدوة في الخلق الحسن:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فكان خلقه ﷺ القرآن^(١)، يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً^(٢)، ولا صحاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح^(٣).

وعن صفية بنت حيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما رأيت أحداً أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ»^(٤).

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لقد خدمته تسع سنين، ما علمته قالَ لشيءٍ صنعتُهُ: لَمْ فَعَلْتُ كَذَا وكَذَا؟ أو لشيءٍ تركته: هَلَا فَعَلْتُ كَذَا وكَذَا»^(٥).

(١) رواه مسلم [٧٤٦] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري [٣٥٥٩]، ومسلم [٢٣٢١] عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه الترمذي [٢٠١٦] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط [٦٥٧٨] بإسناد حسن كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري [٥٧٥/٦].

(٥) رواه البخاري [٢٧٦٨]، ومسلم [٢٣١٠].

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقاً، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمَرَ عَلَى صَبِيَانٍ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السَّوْقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أَنِيسُ، أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(١).

وقدوة في الحلم، والعفو:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ بَرْدٌ نَجْرَانِيٍّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكُهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ؛ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعِطَاءٍ»^(٢).

وقدوة في الحياء:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»^(٣).

وقدوة في الشفقة والرحمة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١) رواه مسلم [٢٣١٠].

(٢) رواه البخاري [٣١٤٩]، ومسلم [١٠٥٧].

(٣) رواه البخاري [٦١٠٢]، ومسلم [٢٣٢٠].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَرَأَ بَايَةً حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكُعُ بِهَا، وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ تَرْكُعُ بِهَا، وَتَسْجُدُ بِهَا. قَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي، فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ شَيْئاً»^(١).

وعن مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَحِيماً رَفِيقاً، فَلَمَّا رَأَى شَوْقَنَا إِلَى أَهْلَانَا؛ قَالَ: «ارْجِعُوا، فَكُونُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَصَلُّوا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؛ فليُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَليُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»^(٢).

وقدوة في المحافظة على حسن العهد:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْثُرُ ذِكْرُهَا، وَرَبِّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْضَاءً، ثُمَّ يَبِيعُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرَبِّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةً إِلَّا خَدِيجَةُ، فيقول: «إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»^(٣).

وقدوة في التواضع:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، يعني: لِيَنَّ جَانِبَكَ، وَارْفُقْ بِهِمْ. أَمْرُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالتَّوَّاضِعِ، وَاللِّينِ، وَالرَّفْقِ لِقُرَّاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

(١) رواه أحمد [٢٠٨٢١]، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري [٦٢٨]، ومسلم [٦٧٤].

(٣) رواه البخاري [٣٨١٨]، ومسلم [٢٤٣٥].

فكان يمرُّ على الصبيان، فيسلم عليهم^(١)، وكانت الجارية تأخذ بيده، فتطلق به حيث شاءت^(٢)، وكان يخفض نعله، ويرقع ثوبه^(٣)، ويحلب شاته^(٤)، ويجالس المساكين^(٥)، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما^(٦)، ويحيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء، ويعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويحيب دعوة العبد^(٧).

وقدوة في الشجاعة:

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَ الْبَأْسُ يَوْمَ بَدْرٍ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مَا كَانَ، أَوْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ»^(٨).

وعند مسلم [١٧٧٦] عن البراء بن عازب قَالَ: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشَّجَاعَ مَنَا لِلَّذِي يَحَازِي بِهِ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ».

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قَبْلَ الصُّوتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعاً، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصُّوتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عَرِي [أَي: بِلَا سَرَج]

(١) رواه البخاري [٦٢٤٧]، ومسلم [٢١٦٨] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أحمد [١١٥٣٠]، وعلقه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه جازماً به، وصححه الألباني في تحقيق المشكاة [٥٨٠٩].

(٣) رواه أحمد [٢٤٢٢٨] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في التعليقات الحسان [٥٦٤٧].

(٤) رواه أحمد [٢٥٦٦٢] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في التعليقات الحسان [٥٦٤٦].

(٥) ينظر: صحيح مسلم [٢٤١٣].

(٦) رواه النسائي [١٤١٤] عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في التعليقات الحسان [٦٣٩٠].

(٧) ينظر: مدارج السالكين [٣٢٨/٢].

(٨) رواه أحمد [١٠٤٥]، وصححه شعيب الأرنؤوط.

في عنقه السيفُ، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا». قال: «وجدناه بحراً، أو إنه لبحرٌ». قال: وكان فرساً يبطاً»^(١).

وهذا من جملة معجزاته ﷺ كونه ركب فرساً قطوفاً بطيئاً، فعاد بحراً لا يسابق، ولا يجارى.

وقدوة في الجود والكرم:

عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجُودَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجُودَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيَدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَجُودُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

«مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ، فَقَالَ: لَا»^(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ»، قَالَ: «فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، أَسْلَمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»^(٤).

وقدوة في الخشية والخوف من الله:

عن مطرف عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي صَدْرِهِ أَزِيْرٌ»^(٥) كَأَزِيْرِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ، ﷺ»^(٦).

(١) رواه البخاري [٢٩٠٨]، ومسلم [٢٣٠٧].

(٢) رواه البخاري [٦]، ومسلم [٢٣٠٨].

(٣) رواه البخاري [٦٠٣٤]، ومسلم [٢٣١١].

(٤) رواه مسلم [٣٣١٢].

(٥) الأزير: صوت البكاء، وقيل: هو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء، انظر: النهاية [١/ ٤٥].

(٦) رواه أبو داود [٩٠٤]، وصححه الألباني.

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ شَبَتَ!»، فَقَالَ: «شَبَّيْتَنِي هُوَذٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»^(١).

وقدوة في الزهد في الدنيا والتنزه عن مكاسبها:

دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ [أي: جلد] حَشَوْهَا لَيْفٌ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهْبٌ^(٢) مَعْلَقَةٌ، قَالَ عُمَرُ: فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ؛ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يَبْكِيكَ؟»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كَسْرِي، وَقِصَرَ فِيهَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَنَا الْآخِرَةُ»^(٣).

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَحُثُّ أَصْحَابَهُ عَلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّعَلُّقِ بِالْآخِرَةِ كَانَ يَحُجُّ عَلَى رَحْلِ رَثٍّ^(٤)، وَقَطِيفَةٍ لَا تَكَادُ تَسَاوِي أَرْبَعَةَ دِرَاهِمٍ^(٥).

وقدوة في الثبات مع اليقين بوعد الله:

رَوَى الْبُخَارِيُّ [٢٨٦٤]، وَمُسْلِمٌ [١٧٧٦] عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَمْرَةَ وَلَيْتَمَ يَوْمَ حَنِينٍ! قَالَ: «لَا وَاللَّهِ مَا وَلَّى النَّبِيُّ ﷺ، وَلَكِنْ وَلَّى سُرْعَانَ النَّاسِ (أَوَائِلَهُمْ) فَلَقِيَهُمْ هَوَازُنٌ بِالنَّبْلِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ أَخَذَ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ».

(١) رواه الترمذي [٣٢١٩]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٧٢٣].

(٢) جمع إهاب، وهو الجلد الذي لم يبدغ، انظر: النهاية [١٩٨/١].

(٣) رواه البخاري [٥٨٤٣]، ومسلم [١٤٧٩].

(٤) أي: خلقٍ بالٍ، انظر: النهاية [٤٧٩/٢].

(٥) رواه ابن ماجه [٢٨٩٠] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٦١٧] بمجموع طرقه وشواهده.

وقدوة في الصبر على الناس والعفو عن المسيء:

وقد جاء وصفه في التوراة: «ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح»^(١).

وقدوة في كثرة الاستغفار والتوبة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «والله إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

وهو قدوة في العبادة:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ [أي: تتشقّق] قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك، وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»^(٣).

وعن عبيد بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ»، قال: فسكتت، ثم قالت: «لما كان ليلة من الليالي، قال: «يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي»، قلت: والله إني لأحبّ قربك، وأحبّ ما سرّك، قالت: فقام، فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، فجاء بلائاً يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لم تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدّم وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»

(١) رواه البخاري [٢١٢٥] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري [٦٣٠٧].

(٣) رواه البخاري [٤٨٣٧]، ومسلم [٢٨٢٠].

لقد نزلت على الليلة آية، ويل لمن قرأها، ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآية كلها^(١).

وفي شهر رمضان، كان هديه الإكثار من أنواع العبادات، يكثر فيه من الصدقة والإحسان،
وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف.

وفي التطوع: كان ﷺ يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وما استكمل
صيام شهر غير رمضان، وما كان يصوم في شهر أكثر مما يصوم في شعبان^(٢)، وكان يتحرى صيام
يوم الاثنين والخميس^(٣).

وفي قراءة القرآن: كانت قراءته ترتيلاً، لا هذلاً ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، وكان
يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، فيمد ﴿الرَّحْمَنُ﴾، ويمد ﴿الرَّجِيمُ﴾^(٤)، وكان
يستعيد بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، وربما كان
يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»^(٥)، وكان له ﷺ حزب
يقرؤه، ولا يخل به.

وكان يقرأ القرآن قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، ومتوضئاً، ومحدثاً، ولم يكن يمنعه من قراءته
إلا الجنابة^(٦).

(١) رواه ابن حبان [٦٢٠]، وحسنه الألباني في الصحيحة [٦٨].

(٢) رواه البخاري [١٩٦٩]، ومسلم [١١٥٦].

(٣) رواه الترمذي [٧٤٥]، والنسائي [٢٣٦١]، وابن ماجه [١٧٣٩] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني.

(٤) ينظر: صحيح البخاري [٥٠٤٦].

(٥) رواه أبو داود [٧٧٥]، والترمذي [٢٤٢]، والنسائي [٨٩٩] عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٦) ينظر: زاد المعاد [١/٤٨٢].

وهو قدوة في ذكره لله عَزَّجَل:

فقد كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عَزَّجَل، وكان يذكر الله في كل أحيانه، قائماً وقاعداً، وماشياً وراكباً، وسائراً ونازلاً.

ودعا إلى الاقتداء به في صلاته، وصيامه، وزواجه:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها! [أي: اعتبروها قليلة] فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر.

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني»، أي: من ترك طريقتي، وأخذ بطريقة غيري فليس مني».

وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر؛ ليتقوى على الصوم، وينام؛ ليتقوى على القيام، ويتزوج؛ لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل.

وفي الحديث: دلالة على تتبع أحوال الأكابر؛ للتأسي بأفعالهم، وأن من عزم على عمل برٍّ، واحتاج إلى إظهاره حيث يأمن الرِّياء؛ لم يكن ذلك ممنوعاً^(٢).

(١) رواه البخاري [٥٠٦٣]، ومسلم [١٤٠١].

(٢) فتح الباري [١٠٦/٩].

قدوة في الحج:

والحج من أوضح عبادات الإسلام التي يتجلى فيها اتباع النبي ﷺ، والتأسي به. وقد أمر ﷺ بالافتداء به في الحج بقوله: «لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجّتي هذه»^(١).

والافتداء بالنبي ﷺ لا يقتصر على صفاته المعنوية، بل يتعدى ذلك؛ ليشمل الاقتداء به في جوانب حياته العملية، فهديه في ذلك ﷺ أكمل هدي، يقتدي به المسلم. ففي الطعام والشراب؛ لا يردّ موجوداً، ولا يتكلّف مفقوداً. ما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، ما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه^(٢). ويرى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ولا يوقد في بيته نار^(٣). وكان إذا قرب إليه الطعام قال: «بسم الله»، فإذا فرغ من طعامه قال: «اللهم أطعمت وسقيت، وأغنيت وأقنيت، وهديت وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت»^(٤). وإذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعوه لهم^(٥).

يأكل ما تيسر، فإن أعوزه صبر، حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان لا يأنف من مؤكلة أحد صغيراً كان أو كبيراً، حرّاً أو عبداً، أعرابياً أو مهاجراً^(٦).

(١) رواه مسلم [١٢٩٧].

(٢) ينظر: صحيح البخاري [٣٥٦٣]، وصحيح مسلم [٢٠٦٤].

(٣) ينظر: صحيح البخاري [٢٥٦٧]، وصحيح مسلم [٢٩٧٢].

(٤) رواه أحمد [١٦١٥٩]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٧٦٨].

(٥) ينظر: حديث عبد الله بن بسر في صحيح مسلم [٢٠٤٢].

(٦) ينظر: زاد المعاد [١٤٧/١].

وفي النوم والاستيقاظ:

كان ينام إذا دعت الحاجة إلى النوم على شقه الأيمن، ذاكراً لله تعالى، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب.

وكان إذا أراد أن ينام وضع يده تحت رأسه ثم قال: «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك»^(١). وكان يستيقظ إذا صاح الصارخ، فيحمد الله تعالى ويكبره، ويهلله ويدعوه، ثم يستاك، ثم يقوم إلى وضوئه، ثم يقف للصلاة بين يدي ربه، مناجياً له بكلامه، مثنياً عليه، راجياً له، رغباً راهباً.

وكان ينام على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة^(٢).

قدوة في كلامه وسكوته وضحكه وبكائه:

كان إذا تكلم؛ تكلم بكلام مفصل مبين يعدّه العادّ، ليس بهدّ مسرع لا يحفظ، ولا منقطع تخلّله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدى.

وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليعقل عنه، وكان إذا سلّم سلّم ثلاثاً^(٣).

وكان طویل السكوت، لا يتكلم بشيء في غير حاجة، ويتكلم بجوامع الكلام، فصل لا فضول ولا تقصير، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كره الشيء عرف في وجهه.

وكان جلّ ضحكه التبسم، بل كلّ التبسم، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه.

(١) رواه الترمذي [٣٣٩٨] عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: زاد المعاد [١/ ١٥٥]، [٤/ ٢٤٦].

(٣) رواه البخاري [٩٤] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان يضحكُ مما يضحكُ منه، وهو مما يتعجبُ من مثله، ويستغربُ وقوعه ويستندر^(١).
وأما بكاؤه ﷺ، فكان من جنسِ ضحكهِ، لم يكنْ بشهيقٍ، ورفعِ صوتٍ، كما لم يكنْ ضحكهُ
بقهقهةٍ، ولكن كانتْ تدمعُ عيناه حتى تهملًا، ويسمعُ لصدره أزيزٌ.
وكان بكاؤه تارةً رحمةً للميتِ، وتارةً خوفًا على أمته وشفقةً عليها، وتارةً من خشيةِ الله،
وتارةً عند سماع القرآن، وهو بكاءٌ اشتياقٍ ومحبةٍ وإجلالٍ، مصاحبٌ للخوفِ، والحشية.
ولما مات ابنه إبراهيم؛ دمتْ عيناه وبكى رحمةً له، وبكى لِمَا شاهد إحدى بناته ونفسها
تفِيضُ^(٢).

وبكى لما قرأ عليه ابنُ مسعودٍ سورة النساء^(٣).
وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف،
وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخُ.
وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل^(٤).

قدوة في خطبته:

كان إذا خطب؛ احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذرُ جيشٍ، لا يخطبُ
خطبةً إلا افتتحها بحمد الله.

وكان مدارُ خطبه على حمدِ الله، والثناءِ عليه بآلائه، وأوصافِ كماله ومحامده، وتعليمِ قواعدِ

(١) ينظر: زاد المعاد [١٨٢/١].

(٢) ينظر: مسند أحمد [٢١٢٧٢]، وهي أمانة، أو أميمة بنت زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) رواه البخاري [٤٥٨٢]، ومسلم [٨٠٠] من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: زاد المعاد [١٨٣/١].

الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبه.

وكان يخاطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم، وكان يقصر خطبته أحياناً، ويطيلها أحياناً، بحسب حاجة الناس^(١).

وقدوة في المعاملات:

كان أحسن الناس معاملةً.

باع رسول الله ﷺ واشترى، وأجر، واستأجر، وشارك غيره، ولما قدم عليه شريكه قال: أما تعرفني؟ قال: «أما كنت شريكي؟ فنعمة الشريك كنت لا تداري، ولا تماري»^(٢).

وأهدى، وقبل الهدية، وأثاب عليها، واستدان برهن، وبغير رهن، واستعار، واشترى بالثمن الحال والمؤجل.

وكان إذا استلف سلفاً؛ قضى خيراً منه، وكان إذا استسلف من رجل سلفاً؛ قضاه إياه، ودعا له، فقال: «بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء»^(٣).

ووقف رسول الله ﷺ أرضاً كانت له، جعلها صدقة في سبيل الله.

وتشفع، وشفع إليه، وردت بريرة شفاعته في مراجعتها مغنيًا، فلم يغضب عليها، ولا عتب، وهو الأسوة والقدوة.

وحلف في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع، وكان ﷺ يستثني في يمينه تارة، ويكفرها تارة، ويمضي فيها تارة.

(١) ينظر: زاد المعاد [١/ ١٩١].

(٢) رواه أبو داود [٤٨٣٦]، وابن ماجه [٢٢٨٧]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٤٨٣٨].

(٣) رواه النسائي [٤٦٨٣]، وابن ماجه [٤٢٤٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٢٣٥٣].

وكان يمازح، ويقول في مزاحه الحق، ويورّي، ولا يقول في توريته إلا بحق.

وسابق رسول الله ﷺ بنفسه على الأقدام، وصارع.

وخصف نعله بيده، ورقع ثوبه بيده، ورقع دلوّه، وحلب شاته، وفلى ثوبه، وخدم أهله ونفسه، وحمل معهم اللبن في بناء المسجد، وأضاف وأضيف.

وكان يعودُ المريض، ويشهدُ الجنازة، ويجيب الدعوة، ويمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم، وسمع مديح الشعر، وأثاب عليه^(١).

قدوة في عيادة المريض:

كان ﷺ يعودُ من مرض من أصحابه، وعاد غلاماً كان يخدمه من أهل الكتاب، وعاد عمّه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم اليهودي، ولم يسلم عمّه.

وكان يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله، فيقول: «كيف تجدك؟».

وكان يمسحُ بيده اليمنى على المريض، ويقول: «اللهم ربّ الناس، أذهبِ البأس، واشفه أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادرُ سقماً»^(٢).

قدوة في سنن الفطرة:

كان يعجبه التيمّن في تنعله، وترجّله، وطهوره، وأخذه وعطائه، وكانت يمينه لطعامه وشرابه وطهوره، ويساره لخلائه ونحوه من إزالة الأذى.

وكان هديه في حلق الرأس تركه كلّ، أو أخذه كلّ، ولم يكن يخلق بعضه، ويدعُ بعضه.

(١) ينظر: زاد المعاد [١/ ١٦٥].

(٢) ينظر: زاد المعاد [١/ ٤٩٤].

وكان يحبُّ السَّوَاكَ، ويستاكُ مفطراً وصائماً، وعندَ الانتباهِ من النومِ، وعندَ الوضوءِ، والصلاةِ، ودخولِ المنزلِ.

يكثرُ التَّطَيُّبَ، ويحبُّ الطَّيِّبَ، ولا يردُّه.

وكان يحبُّ التَّرجَلَ، وكان يرجُلُ نفسه تارةً، وترجله عائشةُ تارةً^(١).

فلينظر المسلمون إلى حالهم اليومَ، وليتخذوا من رسولِ الله ﷺ وصحابته مثلهم الأعلى، بدلاً من أن يتخذوا من الممثلين والممثلات، والمفكرين العالميين، ورجالِ الغربِ قدوةً لهم.

ولا بدَّ هنا من الكلام عن مسألةٍ مهمَّةٍ، وهي: ما هي الأفعال التي يقتدى بها من أفعال النبي ﷺ؟ وليبان ذلك نقول:

تنقسمُ أفعالُ النبي ﷺ، إلى أربعةِ أقسام:

القسم الأول: الأفعال الجبليَّة، وهي الأفعال الصادرة من النبي ﷺ باعتباره بشراً كسائر البشر، وليس بمقتضى الرسالة، كالحركات، والقيام والقعود، والمشي، والأكل والشرب، والنوم، فهذه الأفعال لا يتعلَّق بها أمرٌ، ولا نهيٌ.

إلا أن الفعلَ الجبليَّ إذا واظبَ النبي ﷺ على إيقاعه على هيئةٍ مخصوصةٍ؛ فإنه يخرج من الإباحة إلى الاستحباب، كنومه على الشَّقِّ الأيمن.

وكذلك إذا ورد قولٌ يحثُّ على هذا الفعل؛ فإنه يصيرُ مستحبّاً، كالتنفُّس في الشراب ثلاثاً، والأكل باليمين.

القسم الثاني: أفعاله الجاريةُ على وفق عادات قومه وأعرافهم، مما لم يدلُّ دليلٌ على ارتباطها بالشرع.

(١) ينظر: زاد المعاد [١/١٧٦].

كالأمور التي تتعلق باللباس؛ لأن اللباس مرجعه إلى العادة التي اعتادها أهل البلد؛ ولهذا لم يغير الرسول ﷺ لباسه الذي كان يلبسه قبل النبوة، وإنما وضع شروطاً وضوابطاً للباس الرجل، والمرأة، وكتطويل شعره أيضاً، وهذه الأفعال لا يقال: إن متابعتها فيها سنة؛ لأنه لم يقصد بفعلها التشريع، ولم يتعبد بها.

وإذا ورد قولٌ يأمرُ بذلك، أو يرغبُ فيه، أو جاءتُ قرينةٌ تدلُّ على علاقة الفعل العادي بالشرعية، فهذا خارجٌ عن هذا النوع، كلبس الأبيض، ورفع الإزار إلى نصف الساق، ونحو ذلك.

القسم الثالث: أفعاله الخاصة به، وهذه لا أسوة به فيها، كالوصال في الصيام، وجمعه بين أكثر من أربع نسوة، ونكاح الموهوبة بلا مهر، ونحو ذلك.

القسم الرابع: الفعل التعبدى وهو الفعل الذي فعله النبي ﷺ تعبداً لله.

فهذا الفعل هو الذي يقتدى بالنبي ﷺ فيه، وقد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً.

وإلى جانب الاقتداء بالنبي ﷺ في الأفعال يقتدى به في التروك.

والمقصود بالتروك: تركه ﷺ فعل أمر من الأمور، ومعرفة تركه ﷺ لأمر من الأمور يكون بطريقتين:

الأول: التصريح بأنه ترك كذا وكذا، ولم يفعله، كقول الصحابي في صلاة العيد: «أن رسول الله ﷺ صلى العيد بلا أذان، ولا إقامة»^(١).

الثاني: عدم نقل الصحابة للفعل الذي لو فعله النبي ﷺ؛ لتوفرت همهم ودواعيهم على نقله للأمة.

(١) رواه البخاري [٩٥٩]، ومسلم [٨٨٦]، وأبو داود [١١٤٧]، واللفظ له.

فحيثُ لم ينقله واحدٌ منهم ألبتة، ولا حدّث به في مجمعٍ أبداً علم أنه لم يكن، وذلك
 تركه ﷺ التلفّظ بالنية عند دخوله الصلاة، وتركه ﷺ لفعلٍ من الأفعال يكون حجةً، إلا إذا
 ترك شيئاً؛ لوجود مانعٍ من فعله، تركه ﷺ قيامَ رمضان جماعةً؛ بسببِ خشيته أن يفرض على
 أمته، فمثل هذا ليست الأسوة في تركه، بل في فعله؛ لانتفاء المانع.



البَابُ الثَّانِي

تَعَامُلُ النَّبِيِّ ﷺ

مَعَ أَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ

تعامل النبي ﷺ مع زوجاته

قد أمرنا الله بالافتداء بالنبي ﷺ، والتأسي بهديه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن هنا فعلى الجميع أن يعرفوا رسول الله ﷺ بحسب مواقعهم؛ ليتمكنوا من التأسي به ﷺ. فلا يسعُ الزوج إلا أن يعرف الرسولَ الزوجَ، ولا يسعُ الحاكم إلا أن يعرف الرسولَ العادلَ في حكمه، ولا يسعُ القائد إلا أن يعرف الرسولَ القائدَ القدوة.

وقد كان النبي ﷺ قدوةً في فنِّ التعامل مع الزوجة، ونبراساً لإرشاد الناس إلى الرقيِّ بالتعامل مع الزوجة معاملةً حسنةً يظهر أثرها الإيجابيُّ في الحياة الزوجية والاجتماعية.

من ثمَّ سيكون الحديث في هذا الفصل بعون الله من عدة جوانب:

الجانبُ الأوَّل: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته.

الجانبُ الثاني: تربية النبي ﷺ لنسائه؛ ليكونَ قدوةً لنساء المؤمنين.

الجانبُ الثالثُ: حلول المشكلات في البيت النبوي.

وإليك -أخي القاري- بيان ذلك فيما يلي:

الجانب الأول:

تعامل النبي ﷺ مع زوجاته

فقد كان للنبي ﷺ إحدى عشرة زوجةً، وهن: خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وسودة بنت زمعة العامرية، وزينب بنت جحش الأسدية، وزينب بنت خزيمة الهلالية، وأم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وصفية بنت حيي النضيرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

وقد مات عن تسعٍ منهنَّ، وماتت خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قبله ﷺ. وقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهرات حياةً سعيدةً طيبةً، تمثل تطبيقاً عملياً دقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، والمعروفُ كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ فعلٍ وقولٍ وخلقٍ نبيلٍ.

والنبي ﷺ كان خيرَ الناسِ في تعامله مع زوجاته، كيفَ لا وهو القائل: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(١)، فكانَ ﷺ حلَّو المعاشرة لزوجاته، حسنَ التعامل معهنَّ، وقد بدا ذلك واضحاً في سيرته ﷺ معهنَّ.

ولو اقتدى الناسُ بالنبي ﷺ في تعامله مع زوجاته؛ لانحلت كثيرٌ من المشكلات الزوجية التي نسمعُ عنها اليومَ.

فإن المرءَ ليعجبُ من كثرة ما يرى ويسمعُ ويقرأ من المشكلات الزوجية التي تعاني منها الأسرُ والبيوتُ، وتشير الإحصائياتُ إلى أن معدّل الطلاق في العالم الإسلامي وصل إلى حدٍّ مخيفٍ، وفي ازدياد مستمرٍّ؛ فقد أظهرت إحصائيةٌ حديثةٌ لعام (١٤٣٠هـ) صادرةً من وزارة

(١) رواه الترمذي [٣٨٩٥] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [٣٣١٤].

العدل بالسعودية ارتفاع حالات الطلاق مقارنةً مع حالات الزواج بنسبة (٢١٪)، وتصدّرت الرياض مناطق المملكة من حيث عدد الحالات^(١).

ومع هذه المشكلات الزوجية، وكثرة حالات الطلاق نحتاج أن نستعرض كيف كانت الحياة في بيت النبوة، وكيف كان رسول الله ﷺ يعامل زوجاته، وكيف كان يصبر عليهن، ويتغاضى عن بعض أخطائهن؛ فإن لنا في رسول الله ﷺ أسوةً حسنةً.

كَانَ ﷺ يَحْرُضُ عَلَى مَجَالَسَةِ زَوْجَاتِهِ، وَمُؤَانَسَتِهِنَّ كُلَّ يَوْمٍ:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ جَلَسَ فِي مَصَلَاهُ، وَجَلَسَ النَّاسُ حَوْلَهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَدْخُلُ عَلَى نِسَائِهِ امْرَأَةً امْرَأَةً، يَسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ، وَيَدْعُو لَهُنَّ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ إِحْدَاهُنَّ كَانَ عِنْدَهَا»^(٢).

ففي كلِّ يومٍ مع أولِّ النهار له مرورٌ على زوجته للسلام عليها، والدعاء لها.

وفي آخر النهار يجالسها جلسةً يحادثها فيها، ويؤانسها، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الْعَصْرِ دَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ، فَيَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ»^(٣).
قولها: «فَيَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ»، المراد به: التقبيل والمباشرة من غير جماع^(٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الَّذِي كَانَ يَقَعُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَلَامٌ وَدَعَاءٌ مُحْضٌ، وَالَّذِي فِي آخِرِهِ مَعُهُ جُلُوسٌ، وَاسْتِنَاسٌ، وَمُحَادَثَةٌ»^(٥).

(١) جريدة الوطن أون لاين [٢٠-٣-٢٠١٢م].

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٨٧٦٤]، وسكت عنه الحافظ.

(٣) رواه البخاري [٥٢١٦]، ومسلم [١٤٧٤].

(٤) عمدة القاري [٩٢/٣٠].

(٥) فتح الباري [٣٧٩/٩].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعاً، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا»^(١).

«وإنما كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ تَأْنِيساً لِهِنَّ، وَتَطْيِيباً لِقُلُوبِهِنَّ؛ حَتَّى يَنْفَصَلَ عَنْهُنَّ إِلَى الَّتِي هُوَ فِي يَوْمِهَا، وَيَتْرَكُهَا طَيِّبَةَ الْقَلْبِ»^(٢).

فَكَانَ نِسَاؤُهُ لَا يَفْقَدُونَهُ، بَلْ يَرِينَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَأَيُّنَ هَذَا مِمَّنْ يَهْجُرُ زَوْجَتَهُ، وَيَتْرَكُهَا الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي، بَلِ الشُّهُورَ!!

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَالِسُ أَصْحَابَهُ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَسْهَرُ مَعَهُمْ إِلَى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ، حَتَّى إِذَا عَادَ إِلَى الْبَيْتِ كَانَ قَدْ اسْتَفْرَغَ جَمِيعَ طَاقَتِهِ، وَقَدْ نَامَ أَهْلُهُ، فَيَلْقِي بِنَفْسِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، وَيَنَامُ.

«وَالْحَدِيثُ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ الدَّخُولُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي يَوْمِهَا مِنْ نِسَائِهِ، وَالتَّأْنِيسُ لَهَا، وَاللَّمْسُ وَالتَّقْبِيلُ.

وَفِيهِ بَيَانٌ حَسَنٌ خَلَقَهُ ﷺ، وَأَنَّهُ كَانَ خَيْرَ النَّاسِ لِأَهْلِهِ»^(٣).

وَأَمَّا فِي اللَّيْلِ، فَرُبَّمَا اجْتَمَعْنَ فِي بَيْتٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، فَيَأْتِيَهُنَّ، وَيَحَادِثُهُنَّ، وَيُؤْنِسُهُنَّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ تِسْعُ نِسْوَةٍ، فَكَانَ إِذَا قَسَمَ بَيْنَهُنَّ لَا يَنْتَهِي إِلَى الْمَرْأَةِ الْأُولَى إِلَّا فِي تِسْعٍ [أَي: بَعْدَ انْقِضَاءِ التَّسْعِ]، فَكُنَّ يَجْتَمِعْنَ كُلُّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَأْتِيهَا»^(٤).

فَفِيهِ: أَنَّهُ يَسْتَحِبُّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَأْتِيَ كُلَّ امْرَأَةٍ فِي بَيْتِهَا، وَلَا يَدْعُهُنَّ إِلَى بَيْتِهِ»^(٥).

(١) رواه أبو داود [٢١٣٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٨٥٢].

(٢) المفهم للقرطبي [٩٠ / ١٣].

(٣) عون المعبود [١٢٢ / ٦].

(٤) رواه مسلم [١٤٦٢].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم [٤٧ / ١٠].

وقد كان النبي ﷺ مع كثرة مشاغله، وعظم أعبائه، يسهر مع زوجاته ويؤنسهن، ويستمتع منهن لطرائف الأخبار.

فقد حدثت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ بحديث أمّ زرع، وهو: أن إحدى عشرة امرأة تعاهدن، وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، فوصفت كل واحدة زوجها، فكانت أحسنهن وصفاً لزوجها وأكثرهن تعداداً لنعمه عليها زوجة أبي زرع.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال لي رسول الله ﷺ: «كنت لك كأي زرع لأمّ زرع»^(١). فلا بدّ للزوج من أن يخصص وقتاً للجلوس مع زوجته لسماع حديثها ومؤانستها. وتشتكي معظم الزوجات اليوم من أزواجهن؛ لأن الواحد منهم في العمل طوال النهار، وعندما يعود في الليل يجلس أمام التلفاز حتى نصف الليل، وهي تنتظره، ثم يأوي بعد ذلك إلى فراشه متعباً، فينام كالجيفة، وربما نام والريموت في يده! ولا يبالي بزوجه المسكينة.

وقد تجد بعضاً من رجال الأعمال جالساً بين أوراقه حتى في البيت، فيرجع من مقر عمله إلى بيته، فيكون الدوام الثاني له في البيت، وأهله في انتظاره!

ومع وسائل الاتصال الحديثة يستطيع المرء أن يبقى على اتصال مع زوجته دائماً، من خلال الرسائل والاتصالات، فلا اتصال؛ للاطمئنان على الزوجة قد لا يكلفك أكثر من دقيقة واحدة، ولكنه يعني عند الزوجة الكثير، والكثير.

وكان ﷺ يعطي نساءه حقهن من المعاشرة:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وله يومئذ تسع نساء، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أوكأن يطيقه؟ قال: «كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين»^(٢).

(١) رواه البخاري [٥١٨٩]، ومسلم [٢٤٤٨].

(٢) رواه البخاري [٢٦٨]، واللفظ له، ومسلم [٣٠٩].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان مع كونه أخشى الناس لله وأعلمهم به يكثُر التَّروِيج لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يَطَّلَع عليها الرِّجال، ولإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة؛ لكونه كان لا يجد ما يشبع به من القوت غالباً، وإن وجدَ كان يؤثر بأكثره، ويصوم كثيراً ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، ولا يطاق ذلك إلا مع قوَّة البدن.... والعرب كانت تمدح بكثرة النكاح؛ لدلالته على الرِّجوليَّة... ولم تشغله كثرتنَّ عن عبادة»^(١).

ولم تكن تمنعه العبادة رَحِمَهُ اللَّهُ من مؤانسة زوجته، ومسامرتها، ومحادثتها، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى، فَإِنْ كُنْتُ مُسْتَيْقِظَةً حَدَّثَنِي، وَإِلَّا اضْطَجَعَ حَتَّى يُؤْذَنَ بِالصَّلَاةِ^(٢). وحتى في السفر كان يباشي زوجته ويحادثها، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ الْقِرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ...»^(٣).

ولم يترك النبي رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الهدى مع نسائه حتى في ليلة بنائه بزوجة جديدة، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَنِيَ عَلَى النَّبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَزِينَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، بِخَبَزٍ وَلَحْمٍ، فَأَرْسَلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ، فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرَجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ، فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرَجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ... فَخَرَجَ النَّبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَاَنْطَلَقَ إِلَى حَجْرَةِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ.

فتقرى حجرَ نسائه كلَّهنَّ، يقولُ لهنَّ كما يقولُ لعائشة، ويقولنَّ له كما قالت عائشة»^(٤).

(١) فتح الباري [٩/ ١١٥].

(٢) رواه البخاري [١١٦١].

(٣) رواه البخاري [٥٢١١]، ومسلم [٢٤٤٥].

(٤) رواه البخاري [٤٧٩٢]، ومسلم [١٤٢٨].

قوله: «تقرى»، أي: تتبّع الحجرات واحدة واحدة^(١).

«فدورانه على حجرٍ نسائه تفقّد لأحوالهنّ، وجبرّ لقلوبهنّ، واستدعاءً لما عندهنّ من أحوال قلوبهنّ؛ لأجل تزويجه؛ ولذلك استلطفنّه بقولهنّ له: كيف وجدتَ أهلك يا رسول الله؟! وصدورٌ مثل هذا الكلامِ عنهنّ في حال ابتداء اختصاصِ الضّرّة الداخلية به؛ يدلّ على قوة عقولهنّ، وصبرهنّ، وحسن معاشرتهنّ، وإلّا فهذا موضع الطيش، والخفّة للضرائر، لكنهنّ طيّباتٌ لطيبٍ»^(٢).

وفي رواية: فجعل يمرّ على نسائه فيسلم على كلّ واحدةٍ منهنّ: «سلامٌ عليكم، كيف أنتم يا أهل البيت»، فيقولون: بخير يا رسول الله، كيف وجدتَ أهلك؟ فيقول: «بخير...»^(٣).

قال النووي: «في هذا أنّه يستحبّ للإنسان إذا أتى منزله أن يسلم على امرأته وأهله، وهذا ممّا يتكبر عنه كثيرٌ من الجاهلين المترفعين.

ومنها: سؤال الرّجل أهله عن حالهم، فربّما كانت في نفس المرأة حاجة، فتستحيي أن تبتدئ بها، فإذا سألها؛ انبسطت لذكر حاجتها»^(٤).

وكان ﷺ وفيّاً لزوجته، يحفظ لها حقّها، ولا ينسى لها سابق عهدا:

فقد أثنى ﷺ على خديجة في حياتها، وبعد موتها ما لم يثن على غيرها، وكان يحرص على بيان فضلها، ومكانتها في قلبه حتى بعد وفاتها.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «ما غرْتُ على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غرْتُ على خديجة،

(١) فتح الباري [٨/ ٥٣٠].

(٢) المفهم [١٣/ ١٥] للقرطبي.

(٣) رواه مسلم [١٤٢٨].

(٤) شرح صحيح مسلم [٩/ ٢٢٥].

وما رأيتهما، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبيعها في صدائق خديجة، وربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة!! فيقول: «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»^(١).

فلم يكف صلوات الله وسلامه عليه عن ذكرها، والثناء عليها بانتهاء العلاقة الزوجية، بل استمر ذلك بعد وفاتها، وكان يقول: «إنها كانت وكانت» أي: كانت فاضلة، وكانت عاقلة، ونحو ذلك.

«وكان لي منها ولد»، فجميع أولاد النبي ﷺ من خديجة، إلا إبراهيم فإنه كان من جاريته مارية. والمتفق عليه من أولاده منها: القاسم، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وعبد الله ولد بعد المبعث، فكان يقال له الطاهر والطيب^(٢).

ولا يذكرها ﷺ إلا ويشني عليها، ويستغفر لها، عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة، لم يكن يسأم من ثناء عليها، والاستغفار لها»^(٣).

وعند النظر في حال الناس اليوم نجد العجب العجيب، تجد الرجل قد ماتت زوجته، فتزوج بأخرى، ثم يجلس يمدح الأخرى، ويقبح أفعال المتوفاة، وأنها كانت، وكانت.

أو يقع فراق بسبب طلاق، فيذمها أينما جلس، وأنه كان صابراً عليها، وما طلقها إلا بعد نفاذ صبره، فلا يذكرها أو يتذكرها إلا وهو ذام لها.

كما أن بعض الناس لا يذكر امرأته بخير أبداً، وإن كان لها فضل عليه.

وكان ﷺ تنسب أساير وجهه إذا رأى، أو سمع ما يذكره بزوجه خديجة رضي الله عنها، فعن

(١) رواه البخاري [٣٨١٨]، ومسلم [٢٤٣٥].

(٢) فتح الباري [١٣٧/٧].

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير [٣١٩/١٦]، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد [٣٦٠/٩].

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «اسْتَأْذَنْتُ هَالَهُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ^(١)، فَارْتَاعَ لَذَلِكَ^(٢)، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَالَهُ»^(٣)، قَالَتْ: فَغَرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذَكَّرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قَرِيشٍ، حَمَرَاءِ الشَّدَقِينَ [أَي: قَدْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهَا مِنَ الْكِبَرِ]، هَلَكْتُ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا، فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ [أَي: تَغَيَّرَ] تَمَعَّرًا مَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ، أَوْ عِنْدَ الْمَخِيلَةِ^(٤)، فَقَالَ: «مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي بِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَذْكُرُهَا بَعْدَ هَذَا إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٥).

«وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَحَبَّ مَحْبُوبَاتِهِ، وَمَا يَشْبَهُهُ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ»^(٦).

«وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ شَيْءٍ أَنْ تَغَارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ امْرَأَةٍ تُوِّفِّيَتْ قَبْلَ تَزْوِجِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَا»^(٧).

وَمِمَّا كَافَأَ النَّبِيَّ ﷺ بِهِ خَدِيجَةُ فِي الدُّنْيَا: أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ فِي حَيَاتِهَا غَيْرَهَا فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خَدِيجَةَ حَتَّى مَاتَ»^(٨).

«وَهَذَا مِمَّا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَخْبَارِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمِ قَدْرِهَا عِنْدَهُ، وَعَلَى مَزِيدِ فَضْلِهَا؛ لِأَنَّهَا أَعْتَنَتْهُ عَنْ غَيْرِهَا، وَاخْتَصَّتْ بِهِ

(١) لَشَبِّهِ صَوْتِهَا بِصَوْتِ أُخْتِهَا فَتَذَكَّرَ خَدِيجَةَ بِذَلِكَ.

(٢) أَي: هَشَّ لِمَجِيئِهَا، وَاهْتَزَّ لَذَلِكَ سُرُورًا.

(٣) أَي: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا هَالَةً.

(٤) السَّحَابَةُ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهَا مَطْرَاءٌ.

(٥) رَوَاهُ أَحْمَدُ [٢٤٣٤٣]، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ [٢٣ / ١٤]، وَقَالَ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ: «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ».

(٦) فَتَحَ الْبَارِي [١٤٠ / ٧].

(٧) سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ [١١٢ / ٢].

(٨) رَوَاهُ مُسْلِمٌ [٢٤٣٦].

بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين؛ لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثانيةً وثلاثين عاماً، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاماً، وهي نحو الثلاثين من المجموع. ومع طول المدّة فصان قلبها فيها من الغيرة، ومن نكد الضرائر....، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها»^(١).

ومن حسن عهده ﷺ معها أنه كان يصل صديقاتها بعد وفاتها، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْثُرُ ذِكْرَهَا، وَرَبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ»^(٢)، وفي رواية: «وَإِنْ كَانَ لِيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيَهْدِي فِي خِلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسْعَهُنَّ»^(٣).

وفي رواية: «وَإِنْ كَانَ لِيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيَتَّبِعُ بِهَا صَدَائِقَ خَدِيجَةَ، فَيَهْدِيهَا لِهِنَّ»^(٤). «فَيَتَّبِعُ»، أي: يتطلب، «فِيهِدَاءُ النَّبِيِّ ﷺ اللَّحْمَ لِأَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ وَخِلَائِلِهَا، رَعِيّاً مِنْهُ لِذِمَامِهَا، وَحِفْظاً لِعَهْدِهَا»^(٥).

«وَفِي هَذَا كُلِّهِ دَلِيلٌ لِحَسَنِ الْعَهْدِ، وَحِفْظِ الْوَدِّ، وَرِعَايَةِ حُرْمَةِ الصَّاحِبِ، وَالْعَشِيرِ فِي حَيَاتِهِ وَوَفَاتِهِ، وَإِكْرَامِ أَهْلِ ذَلِكَ الصَّاحِبِ»^(٦).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَى بِالسَّيِّءِ يَقُولُ: «اذْهَبُوا بِهِ إِلَى فَلَانَةٍ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةَ خَدِيجَةَ، اذْهَبُوا بِهِ إِلَى بَيْتِ فَلَانَةٍ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَحُبُّ خَدِيجَةَ»^(٧).

(١) فتح الباري [١٣٧/٧].

(٢) رواه البخاري [٣٥٣٤]، ومسلم [٢٤٣٥].

(٣) صحيح البخاري [٣٨١٦].

(٤) رواه الترمذي [١٩٤٠].

(٥) تحفة الأحمدي [١٣٤/٦].

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم [٢٠٢/١٥].

(٧) رواه البخاري في الأدب المفرد [٢٣٢]، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد [١٧٢].

ويخصُّ صواحِبها أيضاً بمزيد فضل وإحسان، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: جاءت عَجُوزٌ إلى النبي ﷺ، وهوَ عندي، فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَنْتِ؟»، قالت: أنا جَثَامَةُ المَزنِيَّةُ، فقالَ: «بل أَنْتِ حَسَّانَةُ المَزنِيَّةُ كَيْفَ أَنْتُمْ، كَيْفَ حَالُكُمْ، كَيْفَ كُنتُمْ بَعْدُنَا؟»، قالت: بخيرٍ بأبي أَنْتَ وأُمِّي يا رسولَ الله، فلمَّا خَرَجْتُ، قلت: يا رسولَ الله تقبَّلُ على هذه العَجُوزِ هذا الإقبالَ! فقالَ: «يا عائشةُ، إِنَّها كانتَ تَأْتِينَا زَمَانَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حَسَنَ العَهْدِ مِنَ الإِيَانِ»^(١).

فائدة: مع أن هذه المرأة عَجُوزٌ إلا أن النبي ﷺ غيَّرَ اسمها إلى اسمٍ أَجْمَلٍ وألطفَ؛ لأنَّ الجَثَامَةَ هو الإنسانُ البليدُ الكسلانُ الذي لا يميلُ إلى الحركة.

والحَسَّانَةُ أَشَدُّ حَسَنًا من الحَسَناءِ، وهو اسمٌ جميلٌ قَلَّ من يتسمَّى به من النساءِ في هذا الزمانِ^(٢).

فحسُنُ العَهْدِ والوفاءُ من أخلاقِ أهلِ الإِيَانِ، وهذا الموقفُ من النبي ﷺ فيه مقابلةٌ طَيِّبَةٌ، وملاطفَةٌ جَمِيلَةٌ، وتودُّدٌ محمودٌ، ووفاءٌ نبيلٌ لزوجته خديجة التي طالما أيدته، وخَفَّفَتْ عنه، وواسته.

وكثيرٌ من الأزواج اليومَ يتنكَّرُ لزوجته التي كدحتْ معه بدايةَ عمره، ووضعتْ يدها بيده، وساعدته في بناءِ بيته، وليس هذا من حسنِ العَهْدِ.

وكان ﷺ لا يجدُ غُضاضَةً في التصريحِ بحبِّه لزوجته، وقد قال ﷺ عن خديجة: «إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حَبَّهَا»^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک [١٧ / ١]، وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة [٢١٦].

(٢) وقد سمَّى الشيخُ الألباني رَحِمَهُ اللهُ إِحدى بناته بهذا الاسم اقتداءً بالنبي ﷺ. انظر: السلسلة الصحيحة [٢١٥ / ١].

(٣) رواه مسلم [٢٤٣٥] عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

«وفيه إشارة إلى أَنَّ حُبَّهَا فضيلةٌ حصلت»^(١).

وحبه ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أشهر من أن يذكر، فلم يحبَّ رسولُ الله ﷺ امرأةً حبَّها، ولا تزوجَ بكرةً سواها.

وكان يظهر ذلك الحبَّ، ولا يخفيه، حتى إن عمرو بن العاص سأل النبي ﷺ: أيُّ النَّاسِ أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة»، قلتُ: من الرجال؟ قال: «أبوها»^(٢).

أما الآن فتجدُ من الرجالِ من يعاشِرُ زوجتهُ السنين الطَّوَالَ، دونَ أن يصارحها بحبه لها، وبعضهم يعدُّ ذلك من خوارم المروءة، وربما يستحيي بعضهم من ذلك...!

وكثيرٌ من الناس لا يعلمُ أن تصرّحه بحبه لزوجته من أفضل ما يساعدُ على تعزيز العلاقات، واستمرار الحياة السعيدة، وزيادة الثقة بينهما.

فالزوجة تريدُ من زوجها أن يشعرها أنه يحبُّها، ويصرِّح لها بذلك، ويكثر منه.

وكم من امرأة وقعت في المنكر بسبب أنها وجدت من يتكلَّم معها، ويقول لها كلاماً معسولاً، لم تجده عند زوجها.

وكان ﷺ يقبلُ زوجته قبلَ خروجه من البيت:

عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبَّلَ بَعْضَ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، قلتُ: من هيَ إِلَّا أنتِ، فضحكتُ^(٣).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [٢٠١/١٥].

(٢) رواه البخاري [٣٦٦٢]، ومسلم [٢٣٨٤].

(٣) رواه الترمذي [٧٩]، وأبو داود [١٧٨]، والنسائي [١٧٠]، وابن ماجه [٥٠٢]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٧٢].

بل حتى وهو صائمٌ كان يقبلُ نساءه، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ وَيَبَاشِرُ، وَهُوَ صَائِمٌ، وَكَانَ أَمْلَكُكُمْ لِإِرْبِهِ»^(١).

وَكَانَ ﷺ يَشْرَبُ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي تَشْرَبُ مِنْهُ زَوْجَتُهُ:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كَنتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أَناولُهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعٍ فِيَّ فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرِّقُ الْعِرْقَ [وهو العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم] وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أَناولُهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعٍ فِيَّ»^(٢).

وفي لفظ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضَعُ فَاهُ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَشْرَبُ مِنْهُ، وَيَشْرَبُ مِنْ فَضْلِ شَرَابِي، وَأَنَا حَائِضٌ»^(٣).

«وهذا من غاية موافقته لها حباً»^(٤)، وكم يكون لهذا الفعل من أثرٍ طيبٍ على الزوجة؛ فالنبي ﷺ يضعُ فمه مكانَ فمِ عائشة رضي الله تعالى عنها في المأكَلِ أو المشربِ، يفعلُ ذلك ﷺ وهي حائضٌ؛ إظهاراً للمودة والمحبة.

وَكَانَ ﷺ يَتَسَوَّكُ مِنَ السَّوَاكِ الَّذِي تَسَوَّكْتُ بِهِ زَوْجَتُهُ:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «إِنَّ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَقَّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السَّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنَدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السَّوَاكَ، فَقُلْتُ: أَخَذَهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أَلَيْتَهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: أَنْ نَعَمْ، فَقَضَمْتُهُ، ثُمَّ مَضَعْتُهُ، فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَنَّ بِهِ [أي: استاك به] وَهُوَ مُسْتَنِدٌّ إِلَى صَدْرِي»^(٥).

(١) أي: حاجته، والحديث رواه البخاري [١٩٢٧]، ومسلم [١١٠٦].

(٢) رواه مسلم [٣٠٠].

(٣) رواه النسائي [٣٨٧].

(٤) مرقاة المفاتيح [٤٨٧/٢].

(٥) رواه البخاري [٤٤٣٨].

«فقضمته»، أي: مضغته، والقضم الأخذ بطرف الأسنان، أي: كسرتة أو قطعته^(١).

فقد جمع الله بين ريقه وريقها في آخر يومٍ له من أيام الدنيا، وأول يومٍ من أيام الآخرة، فأئٍ فضلٍ عظيمٍ نالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟!

وربما نامَ على فخذها:

فلما أخرجت عائشة الركب في إحدى السفرات بحثاً عن عقدها الذي ضاع، وليس مع الناس ماءً، جاء أبو بكر يعاتبها، قالت: «عابني أبو بكر، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ، ورأسه على فخذي»^(٢).

وقالت: «كان النبي ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض، ثم يقرأ القرآن»^(٣).

وهذا من طيب عشرته ﷺ، وكريم خلقه.

وفيه: عدمُ الأنفة من الحائض، أو كراهتها خلافاً لليهود الذين لا يؤاكلونها، ولا يجالسونها إذا حاضت.

بل كان النبي يضطجعُ معها في لحافٍ واحدٍ وهي حائضُ:

فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «بينا أنا مع النبي ﷺ مضطجعةً في خميصه، إذ حضتُ؛ فانسللتُ فأخذتُ ثيابَ حيضتي»^(٤)، قال: «أنفستِ؟» [أي: أحضتِ]، قلتُ: نعم، فدعاني،

(١) ينظر: النهاية [١٢٤/٤].

(٢) رواه البخاري [٤٦٠٧]، ومسلم [٥٥٠].

(٣) رواه البخاري [٣٦٧٢]، ومسلم [٢٦٧].

(٤) أي: ذهبت في خفية، ويحتمل ذهابها أنها خافت وصول شيء من الدَّم إليه ﷺ، أو تقذرت نفسها. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم [٢٠٧/٣]

فاضطجعتُ معه في الخميلة^(١)، وفي لفظ: «فدعاني، فأدخلني معه في الخميلة». الخميلة: هي القطيفة، وكل ثوب له خمل من أي شيء كان^(٢).

ففيه: جواز النوم مع الحائض، والاضطجاع معها في لحافٍ واحدٍ.

وأما قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَلُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالمراد: اعتزلوا وطأهن^(٣).

وعن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ يضطجعُ معي وأنا حائض، وبينني وبينه ثوب»^(٤).

وبعض الأزواج إذا حاضت زوجته؛ فارقها في المضجع وتركها، وهذا الفعل مخالفٌ لهدي النبي ﷺ، ومضرٌّ بحال الزوجة، فإن الزوجة حال الحيض تتأبها اضطراباتٌ نفسيةٌ تعكّرُ عليها مزاجها، وتضعفُ نفسيّتها، فإذا انضافَ إلى ذلك مباحدةُ الزوج عن فراشها؛ ضاعفَ ذلك من سوءِ حالتها.

بل توفي رسول الله ﷺ ورأسه على صدر زوجته عائشة رضي الله عنها:

قالت عائشة رضي الله عنها: «توفي النبي ﷺ في بيتي، وفي نوبتي، وبين سحري ونحري»^(٥)، وفي لفظ: «قبضه الله بين سحري ونحري»^(٦). والسحر: هو الصدر والرئة، تريد أنه مات وهو مستند لصدرها، ما بين جوفها وعنقها^(٧).

(١) رواه البخاري [٢٩٨]، ومسلم [٢٩٦].

(٢) النهاية [١٥٣/٢].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [٢٠٧/٣].

(٤) رواه مسلم [٢٩٥].

(٥) رواه البخاري [٣١٠٠]، ومسلم [٤٤٧٤].

(٦) البخاري [١٣٨٩]، ومسلم [٢٤٤٣].

(٧) فتح الباري [١٣٠/١].

وكان يغتسل مع زوجاته من إناءٍ واحدٍ:

كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كنتُ أغتسلُ أنا ورسولُ الله ﷺ من إناءٍ واحدٍ بيني وبينه، يبادرني وأبادره، حتى يقول: «دعي لي»، وأقول أنا: «دع لي»^(١). «يبادرني»، أي: يسبقني؛ لأخذ الماء.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وميمونةَ كانا يغتسلانِ من إناءٍ واحدٍ^(٢).

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنتُ أغتسلُ أنا والنبيُّ ﷺ من إناءٍ واحدٍ من الجنابة»^(٣). وفي هذا بيان حسن تبعل الرسول ﷺ.

وفي زمننا يأنف بعض الرجال أن ينام مع أهله في لحافٍ واحدٍ، أو يأكل معهم؛ بسببِ عاداتٍ ورثوها.

وكان يدلُّ زوجته فيرخمُ اسمها:

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسولُ الله ﷺ يوماً: «يا عائش، هذا جبريلُ يقرئك السلام»، فقلتُ: وعليه السلام ورحمةُ الله وبركاته»^(٤). ويقول لها: يا حميراء^(٥)، فعن عائشة قالت: دخل الحبشة المسجد يلعبون، فقال لي النبيُّ ﷺ: «يا حميراء، أتجيبن أن تنظري إليهم؟»، فقلت: نعم^(٦).

(١) رواه البخاري [٢٥٠]، ومسلم [٣٢١]، والنسائي [٢٣٩]، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري [٢٥٣]، ومسلم [٣٢٢].

(٣) رواه البخاري [٣٢٢]، ومسلم [٣٢٢].

(٤) رواه البخاري [٣٢١٧]، ومسلم [٢٤٤٧].

(٥) الحميراء: تصغير الحمراء، وهي البيضاء المشربة بحمرة.

(٦) رواه النسائي في السنن الكبرى [٨٩٥١]، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [٣٢٧٧]، وقال الحافظ: «إسناده صحيح، ولم أر في حديث صحيح ذكر الحميراء إلا في هذا». فتح الباري [٤٤٤/٢].

قال القاضي عياض: «وهو تصغيرُ إشفاقٍ، ورحمةٍ، ومحبةٍ»^(١).

وكان يكنيها بأُم عبد الله، فعن عائشة، قالت: لَمَّا وَلَدَ عبد الله بنُ الزَّبيرِ أُمِّيَّتُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَفَلَّ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفُهُ، وَقَالَ: «هُوَ عَبْدُ اللَّهِ، وَأَنْتِ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ»، فَمَا زِلْتُ أَكْنِي بِهَا، وَمَا وَلَدْتُ قَطُّ^(٢).

واليوم تجد بعض الرجال يسمّون زوجاتهم في هواتفهم الجوالِ بأسماءٍ قبيحة، مثل: «نشبة»، «ورطة»، «بلية»، «شيطونة»، «غلطة عمري»، بينما يسمّي آخرون زوجاتهم في جوالاتهم بأسماءٍ جميلة حسنة، مثل: «الأهل»، «الغالية»، «شريكة العمر»، «القمر»، «أُم فلان»، فسبحان من قَسَمَ الأخلاقَ بين الأزواج كما قَسَمَ الأرزاقَ.

وَمِنْ حَسَنِ مَعَاشِرَتِهِ ﷺ لَهُنَّ أَنَّهُ كَانَ يَصْحَبُهُنَّ مَعَهُ إِلَى الْوَلَامِ:

عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارِسِيًّا كَانَ طَيِّبَ الْمَرْقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: «وَهَذِهِ» -لِعَائِشَةَ-، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا»، فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَهَذِهِ»، قَالَ: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا»، ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَهَذِهِ»، فَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: نَعَمْ، فَقَامَا يَتَدَاوِعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ»^(٣).

قال النووي: «كرهَ ﷺ الاختصاص بالطعامِ دونها، وهذا من جميل المعاشرة، وحقوق المصاحبة، وآداب المجالسة المؤكدة»^(٤).

وَإِذَا زَارَتْهُ إِحْدَاهُنَّ قَامَ مَعَهَا يَشِيعُهَا حَتَّى وَلَوْ كَانَ مُعْتَكِفًا:

فعن صفية بنت حبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا،

(١) مشارق الأنوار [١/ ٧٠٢].

(٢) رواه ابن حبان [٧١١٧]، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده قوي».

(٣) رواه مسلم [٢٠٣٧].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [١٣/ ٢٠٩].

فحدّثته، ثمّ قمتُ فانقلبتُ، فقامَ معي؛ ليقبني، فمرّ رجلانِ مِنَ الأنصارِ، فلما رآيا النَّبيَّ ﷺ؛ أسرعَا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «على رسلكما إنّها صفيّةُ بنتُ حبيٍّ»، فقالا: سبحانَ الله يا رسولَ الله! قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ جَرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا»^(١).

فتأمّل كيف قام معها من المعتكِف؛ ليرجعها إلى البيت؛ ليحميها ويرعاها، مع أن المعتكف لا يخرج من المسجد إلا للضرورة.

أبياتنا بالحبّ نبيها	زوجاتنا قد نورّت فيها
بالبرِّ والتّقوى نعمّرها	وبسنّة المختار نحيتها
هذا رسولُ الله قدوتنا	تكفيك سنّته وتكفيها
يبدي محبّته لزوجته	وسواه يستعلي فيخفيها
بدعابة منه يضاحكها	وبأجل الأسماء يناديها
قبل الخروج دنا يقبلها	ذكرى لها فمه على فيها
مامدّ يوماً كفّه بأذى	بل تلك نبعُ الخير يجرها

لقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهرات حياةً سعيدةً طيبة؛ إذ كانت تطبيقاً عملياً دقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

فلا عجبَ بعد ذلك أن نرى النَّبيَّ ﷺ يتحدّث عن حياته الزوجية بقوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهلِهِ، وأنا خيركم لأهلِي»^(٢).

وقال ﷺ: «أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنهم خلفاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»^(٣).

(١) رواه البخاري [٢٠٣٨]، ومسلم [٢١٧٥].

(٢) رواه الترمذي [٣٨٩٥] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [٣٣١٤].

(٣) رواه الترمذي [١٠٨٢] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [١٢٣٠].

ولم ينقل عنه ﷺ في يوم من الأيام أنه ضرب امرأة أو حقرها، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأة، ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله»^(١).

وأيّن هذا من حال بعض الرجال اليوم، تجد الرجل تمتدُّ يده إلى زوجته، ويضربها إما على وجهها، أو رأسها، أو ظهرها، وربما استخدم عصاً، أو حذاءً، أو غير ذلك؛ لأتفه الأسباب.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ فقال: ذنن النساء على أزواجهنَّ [أي: نشزن عليهنَّ واجترأنَّ]^(٢)، فرخص في ضربهنَّ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءً كثيرٌ يشكون أزواجهنَّ، فقال النبي ﷺ: «لقد طاف بآل محمدٍ نساءً كثيرٌ يشكون أزواجهنَّ، ليس أولئك بخياركم»^(٣).

«أي: أن الرجال الذين يضربون نساءهم ليسوا بخياركم، بل خياركم لا يضربون نساءهم ويتحملونهنَّ»^(٤).

ولذا قالت العرب: «لا يكرمهنَّ إلا كريمٌ، ولا يهينهنَّ إلا لئيمٌ، يغلبنَّ الكرام، ويغلبهنَّ اللئام». وقد أوصى ﷺ بالرفق بالنساء، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهنَّ خلقنَّ من ضلعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٥).

«في هذا الحديث: الحثُّ على الرفق بالنساء واحتماهنَّ، وملاطفة النساء والإحسان إليهنَّ، والصبرُ على عوج أخلاقهنَّ، واحتماهنَّ»^(٦).

(١) رواه مسلم [٢٣٢٨].

(٢) النهاية [٣٧٥ / ٢].

(٣) رواه أبو داود [٢١٤٦]، وابن ماجه [١٩٨٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٨٦٣].

(٤) عون المعبود [١٣٠ / ٦] بتصرف.

(٥) رواه البخاري [٣٣٣١]، ومسلم [١٤٦٨] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم [٥٧ / ١٠] بتصرف.

وقال ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خَلَقَتْ مِنْ ضَلَعٍ، وَإِنَّكَ إِنْ تَرَدَّدْتَ إِقَامَةَ الضَّلَعِ تَكْسَرُهَا، فَدَارَهَا تَعْشُ بِهَا»^(١).

فمن الواجب على الرجل أن يصبر عليها، ويتحمل ما يصدر منها.

وما زال النبي ﷺ يكرر هذه الوصية كلما حانت الفرصة.

ففي خطبة حجة الوداع أفرد لها جانباً من خطبته العظيمة حيث قال ﷺ: «أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ [أي: أسيرات]، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ...»^(٢).

وإنما كان النبي ﷺ يكرّر وصيته بالنساء؛ لما يعلمه من حالهنّ التي قد لا يقدرُ على تحمّلها بعضُ الرجال الذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب؛ فيحمله عوجُ المرأة على أن يفارقها؛ فيتفرّق شمله، وتشتّت أسرته وأهله.

ولذا أرشد النبي ﷺ الأزواج في حديث آخر إلى ما فيه صلاح أحوالهم مع أسرهم فقال: «لَا يَفْرُكُ -أي: لا يبغض- مؤمنٌ مؤمنةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خَلْقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(٣).

«أي: ينبغي أن لا يبغضها؛ لأنّه إِنْ وَجَدَ فِيهَا خَلْقًا يَكْرَهُ؛ وَجَدَ فِيهَا خَلْقًا مُرَضِيًّا، بَأَن تَكُونَ شَرَسَةَ الْخَلْقِ لَكِنَّهَا دَيِّئَةٌ، أَوْ جَمِيلَةٌ، أَوْ عَفِيفَةٌ، أَوْ رَفِيقَةٌ بِهِ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ»^(٤).

وهكذا فقد كان النبي ﷺ حسنَ العشرة مع زوجاته، دائمَ البشر، حريصاً على إدخال السرور إلى نفوسهنّ، يجلسُ إليهنّ، ويأكلُ معهنّ، ويحادثهنّ، ويأزجهنّ، ويشاورهنّ، ويستمعُ إليهنّ، ويواسيهنّ، ويطمئنُ عليهنّ، ويتغاضى عن تقصيرهنّ وأخطائهنّ.

(١) رواه أحمد [١٩٥٨٩]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [١٩٤٤].

(٢) رواه الترمذي [١٠٨٣]، وابن ماجه [١٨٥١] عن عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٧٨٨٠].

(٣) رواه مسلم [٢٦٧٢] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي [٥٨/١٠].

بل كان يوصي بأهل نسائه خيراً:

عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يَسْمَى فِيهَا الْقِرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا». أَوْ قَالَ: «ذِمَّةٌ وَصَهْرًا»^(١).

الذِّمَّةُ: هِيَ الْحَرَمَةُ وَالْحَقُّ. وَأَمَّا الرَّحْمُ فَلِكُونِ هَاجِرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ. وَأَمَّا الصَّهْرُ فَلِكُونِ مَارِيَةَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ^(٢).

وكان ﷺ يراعي مشاعر زوجته:

ويعرف هل هي راضيةٌ عليه أم ساخطةٌ، فها هو يقول لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنِّي لِأَعْلَمُ إِذَا كُنْتَ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتَ عَلَيَّ غَضَبِي»، فقالت: وَمَنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَمَّا إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً؛ فَإِنَّكَ تَقُولِينَ: لَا، وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتُ غَضَبِي؛ قُلْتِ: لَا، وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ»، قالت: أَجَلُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ^(٣).

فلم يكن من الرجال الذين لا يبالون بزواجاتهم، رضىً أم سخطاً.

فهذا النبي العظيم ﷺ الذي لم تشغله همومُ الدولة، والغزو، والجهاد، وتجهيز الجيوش، ونشر الدعوة في العالم، وإرسال الرسائل إلى كسرى وقيصر، ومتابعة الأمور العظيمة، لم يشغله ذلك عن مراعاة مشاعر زوجته.

فأين هذا، ممن لا يراعي مشاعر زوجته، ولا يبالي بأمرها، سواء كانت راضيةً أم ساخطةً، سعيدةً أم حزينةً؟!

ومن ذلك: مراعاته لمشاعر أم المؤمنين صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلما عيرتها حفصة بأنها ابنة يهودي؛ دافع عنها رسولُ الله ﷺ، وطيبَ خاطرها بكلام يشرِّح الصدر، ويهدئُ خاطر.

(١) رواه مسلم [٢٥٤٣].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [٩٧/١٦].

(٣) رواه البخاري [٥٢٢٨]، ومسلم [٢٤٣٩].

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يَبْكِيكِ؟»، فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكَ لَنَبِيٍّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟»^(١).

«وَإِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ» أَي: هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «وَإِنَّ عَمَّكَ لَنَبِيٍّ» أَي: مُوسَى ابْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

بل كان يواسي زوجته إن رآها حزينة أو مريضة:

فعندما حاضت عائشة وهي في الحجّ دخل عليها وهي تبكي، فقال: «مالكِ أنفستِ؟»، قالت: نعم، قال: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ...».

فلَمَّا قَضَيْتُ الْحَجَّ، أَمَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَأَعْمَرَنِي مِنَ التَّعْنِيمِ، مَكَانَ عَمْرِي الَّتِي نَسَكْتُ^(٣).

ومن الأمور التي ينبغي على الأزواج أن يراعوها مع زوجاتهم: ما تتعرّض له زوجاتهم من تغيير لطباعهنّ؛ بسبب الحيض والنفاس والولادة، وما يحدث لهنّ من تعبٍ، وضيقٍ، وألمٍ.

بل عندما يستشعر الزوج هذه الحالات ويقدرها لزوجته؛ فإن الزوجة تكون مدينة له بذلك الجميل.

وإذا مرضت زوجته ﷺ راقاها، ومسح بيده الحانية عليها:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعُوذُ بَعْضَ أَهْلِهِ يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيَمْنَى^(٤)، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهَبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يَغَادِرُ سَقَمًا»^(٥).

(١) رواه الترمذي [٣٨٢٩]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٣٠٥٥].

(٢) تحفة الأحوذى [٢٦٨/١٠].

(٣) رواه البخاري [٣١٦]، ومسلم [١٢١١].

(٤) أي: تفاعل بزوال الوجع، مع ما فيه من حنان وعطف.

(٥) رواه البخاري [٥٧٤٣]، ومسلم [٢١٩١].

فالأزواج إذا تلمّس مواضع الألم من زوجته وحنا عليها، ووضع يده على مكان الألم من زوجته؛ كان لذلك عظيم الأثر في نفس المرأة وإن لم يذهب الألم، وإن بقي الداء، لكنها تشعر أنه يحسُّ بها، وبآلامها.

وقد عابت إحدى النساء زوجها - كما في قصة حديث أم زرع - بقولها: «ولا يولج الكف؛ ليعلم البت»^(١).

«أي: لا يمدُّ يده؛ ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله... والمراد بالبت الحزن، ويطلق البت أيضاً على الشكوى، وعلى المرض.. فأرادت أنه لا يسأل عن الأمر الذي يقع اهتمامها به، فوصفته بقلّة الشفقة عليها»^(٢).

فهي تعيبه بذلك! فالمواساة بين الزوجين عند حلول كرب، أو نزول مرضٍ مطلوبة. ولكن بعض الأزواج لا يراعي هذه الحالات، ويريد أن تكون المرأة صحيحة سليمة دائماً، فإذا مرضت؛ ذهب بها إلى بيت أهلها، وتركها حتى تشفى؛ لأنه لا يطيق مجالستها وهي على هذه الحال.

ومن مواساته ﷺ:

مسحه لدموع زوجته صفيّة بيده لما مرض جملها في طريق السفر.

عن صفيّة بنت حيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَجَّ بَنَسَائِهِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ؛ نَزَلَ رَجُلٌ، فَسَاقَ بَهَنًا، فَأَسْرَعَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَذَاكَ سَوْفَكَ بِالْقَوَارِيرِ، يَعْنِي النِّسَاءَ»، فَبَيْنَا هُمْ يَسِيرُونَ بَرَكَ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حَيٍّ جَمَلَهَا، وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنَ ظَهْرًا، فَبَكَتْ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَخْبَرَ بِذَلِكَ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ دُمُوعَهَا بِيَدِهِ^(٣).

(١) رواه البخاري [٥١٨٩]، ومسلم [٢٤٤٨] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بطوله.

(٢) فتح الباري [٢٦٣/٩].

(٣) رواه أحمد [٢٦٣٢٥]، وصححه الألباني في الصحيحة [٣٢٠٥].

فمسخُ الدموعِ بيدِ الزوجِ فيه مواساةٌ كبيرةٌ، وتقديرٌ لعواطفٍ ومشاعرِ الزوجة، مع أن سببَ البكاءِ أمرٌ هينٌ، إذ بكتُ بسببِ بركِ جملها الذي كان يعدُّ من أحسنِ الجمالِ، ومع ذلك لم يحقرِ النبي ﷺ مشاعرَ صفيّةَ وعواطفها.

فالزوجةُ تمرُّ أحياناً بأزماتٍ، أو مشكلاتٍ، وتحتاجُ إلى تطيبِ خاطرها ببسمةٍ حانيةٍ، ونبرةٍ صافيةٍ، تحتاجُ إلى من يخفّفُ عنها ما هي فيه حتى تحسّ أنها ليست وحدها تواجهُ هذه الأزماتِ والمشكلاتِ.

قد تفقدُ المرأةُ قريباً لها -أباً، أمّاً، أخاً- فتحتاجُ إلى من يصبرَها، ويذكّرَها بفضيلةِ الصبرِ، ويواسيها، ولكن قد يكونُ هذا الخلقُ غائباً عن بعضِ الناسِ، فتجده لا يبالي بما تتعرّضُ له زوجته من مصائبٍ، ولا بما يقعُ عليها من مشاكلٍ.

بل قد تجدُ من يحقرُ مصيبتها، ويسخرُ منها، ويستهزئ بما يحصلُ لها.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْرِجُ حَقَّ الضَّعِيفِينَ: الْيَتِيمَ، وَالْمَرْأَةَ»^(١).

«أعرج» أي: أضيق على الناسِ في تضييعِ حقِّها، وأشدُّد عليهم في ذلك، والمقصودُ إسهاده تعالى في تبليغِ ذلك الحكم إليهم^(٢).

وقد بلغ من رفقهِ ﷺ بزوجاته، وحسنِ عشرته لهنَّ:

أن ترفع زوجته صوتها عليه فيحتمل ذلك منها.

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جاء أبو بكرٍ يستأذنُ على النَّبِيِّ ﷺ، فسمعَ عائشةَ، وهي رافعةٌ صوتها على رسولِ الله ﷺ، فأذنَ لَهُ فدخلَ، فقال: يا ابنةَ أمِّ رومانَ، وتناولها، أترفعين

(١) رواه ابن ماجه [٣٦٧٨] وصححه الألباني في الصحيحة [١٠١٥].

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه [٨٣/٧].

صوتك على رسول الله ﷺ؟! فحال النبي ﷺ بينه وبينها، فلما خرج أبو بكر، جعل النبي ﷺ يقول لها يترضاها: «ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك»، ثم جاء أبو بكر، فاستأذن عليه، فوجده يضاحكها، فأذن له فدخل، فقال له أبو بكر: يا رسول الله أشركاني في سلمكما، كما أشركتاني في حربكما^(١).

بل ربما راجعته إحداهن في الأمر، وهجرته إلى الليل، ويحتمل ذلك منها، كما قال عمر: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخب عليّ امرأتي فراجعني، فأنكرت أن تراجعني. [أي: ترادني في القول وتناظرني فيه]، فقالت: ما تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فانطلقت، فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ فقالت: نعم، فقلت: أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل، قالت: نعم... الحديث^(٢). وفيه: أن شدة الوطأة على النساء مذمومة؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نساؤهم، وترك سيرة قومه.

وفيه: الصبر على الزوجات والإغضاء عن خطأهن، والصفح عما يقع منهن من زلل في حق المرء، دون ما يكون من حق الله تعالى^(٣).

وقد بلغ من حسن معاشره الرسول ﷺ لنسائه:

أنه كان يقوم بمساعدتهن في تدبير شؤون المنزل.

عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»^(٤).

(١) رواه أحمد [١٧٩٢٧] وصححه الألباني في الصحيحة [٢٩٠١].

(٢) رواه البخاري [٨٩] ومسلم [١٤٧٩] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) فتح الباري [٩/٢٩١].

(٤) رواه البخاري [٦٧٦].

«في مهنة أهله»، يعني: خدمة أهله، أي: عملهم، وخدمتهم، وما يصلحهم^(١).
وقد وقع تفسير هذه الخدمة في روايات أخرى بقولها: «ما كان إلا بشراً من البشر؛ يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»^(٢).
وعند أحمد [٢٤٣٨٢] عنها: «كان يخيظ ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٩٣٧].
«يفلي ثوبه» أي: ينظر في الثوب هل فيه شيء من الأذى والوسخ.
«يخصف نعله» أي: يجرزها طاقةً على الأخرى، من الخصف وهو الضم والجمع^(٣).
ومن الناس الآن من يحمل زوجته أعباءً وأحمالاً فوق طاقتها، وربما يراها متعبة، أو مريضة، فلا يكثر لذلك، ولا يساعدها في شئون المنزل، وليس هذا من حسن العشرة.

وكان ﷺ يساعد زوجته في ركوبها على الدابة:

فلما أرادت صفية أن تركب البعير، -قال أنس-: فرأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة -يعني: يحيطها ويشملها بها، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب^(٤).
فرسول الله ﷺ يضع لها ركبته؛ لتصعد عليها وتركب، وهذا غاية التواضع والرحمة والإحسان في معاملة الزوجة.

(١) طرح الشريب [٥٣/٩].

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد [٥٤١]، والترمذي في الشبائل [٣٤٣]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٩٩٦].

(٣) النهاية [١٠٠/٢].

(٤) رواه البخاري [٢٨٩٣]، ومسلم [١٣٦٥].

وقد كان ﷺ يهتمُ بنظافته ورائحته الطيبة:

فكان إذا دخل بيته بدأ بالسواك، حتى لا تشمَّ منه زوجته رائحةً متغيرة.
عن شريح بن هانئ قال: سألت عائشة، قلت: بأيِّ شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته؟
قالت: بالسواك^(١).

«والحكمة في ذلك: أنه ربَّما تغيَّرت رائحة الفم عند محادثة النَّاس، فإذا دخل البيت كان من حسن معاشرة الأهل إزالة ذلك»^(٢).

وكان يحرصُ على نظافة فمه، وأسنانه كلما استيقظَ من نومه، فعن عائشة: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان لا يرقُدُ من ليلٍ، ولا نهارٍ، فيستيقظُ؛ إلَّا تسوَّكَ قبل أن يتوضَّأ»^(٣).

وهذا يدلُّ على استحبابِ تعاهدِ السواك؛ لما يكرهه من تغيُّرِ رائحةِ الفم بالأبخرة، والأطعمة، وغيرها^(٤).

قال ابن القيم: «وكان ﷺ يحبُّ السَّوَاكَ، وكان يستاكُ مفطراً، وصائماً، ويستاكُ عند الانتباه من النَّوم، وعند الوضوء، وعند الصَّلاة، وعند دخول المنزل، وكان يستاكُ بعود الأراك»^(٥).

وهذا أمرٌ مهمٌّ للغاية في الحياة الزوجية، ويكفي أن نعلم أن من أحد أسبابِ قضايا الطلاق المرفوعة في المحاكم اليوم: عدمُ اهتمامِ أحدِ الزوجينِ بنظافةِ الفم والأسنان.

فكان رسول الله ﷺ يحرصُ على أن لا تظهرَ منه إلا الريحُ الطيبة:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يشدُّ عليه أن يوجَدَ منه ريحٌ»^(٦).

(١) رواه مسلم [٢٥٣].

(٢) حاشية السيوطي على سنن النسائي [١٠ / ١].

(٣) رواه أبو داود [٥٧]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٤٨٥٣].

(٤) المفهم [١٣٦ / ٣].

(٥) زاد المعاد [١٦٧ / ١].

(٦) رواه البخاري [٦٩٧٢]، ومسلم [١٤٧٤].

أي: الغير الطيب، وفي رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وكان أشدَّ شيء عليه أن يوجد منه ريح سيئة»^(١).

وكان من أخلاقه التطيب، يحبه، ويكثر منه، بل هو إحدى محبوباته الدنيوية كما في الحديث: «حَبَّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجَعَلْتُ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

بل إنه ﷺ ترك كثيراً من المباحات، كالثوم والبصل ونحوهما، لرائحتها الكريهة. أين هذا ممن يدخل بيته ويأتي إلى زوجته ورائحة الدخان تنبعث منه، وهي ربما تكون قد تطيبت له بأجل الأطياب، فتنبعث منها الروائح الزكية، أما هو فتنبعث منه الروائح الكريهة!

وكان ﷺ يتجمل لنسائه، ويرجل شعره، ويهتم به:

وأمر بذلك أصحابه فقال: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ؛ فليكرمه»^(٣).

«أي: فليزينه، ولينظفه: بالغسل، والتدهين، والترجيل، ولا يتركه متفرقاً؛ فَإِنَّ النَّظَافَةَ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ مَحْبُوبٌ»^(٤).

فينبغي على الزوج أن يتجمل، ويتنظف لزوجته، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنِّي لأحبُّ أَنْ أَتَزِينَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أَحَبُّ أَنْ تُتَزِينَ لِي الْمَرْأَةُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]»^(٥).

(١) المعجم الأوسط [٨٧٦٤].

(٢) رواه النسائي [٣٩٣٩] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣١٢٤].

(٣) رواه أبو داود [٤١٦٣] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٦٤٩٣].

(٤) عون المعبود [١١٨٣/٩].

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره [٥٣٢/٤].

فكان ﷺ يرجل شعره ويمشطه:

فعن سهل بن سعد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً اطلع من حجر في باب رسول الله ﷺ، ومع رسول الله ﷺ مدرى^(١) يرجل به رأسه...^(٢).

وأحياناً يجعل زوجته ترجل له شعره، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اعتكف يَدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ أَرْجِلُهُ^(٣).

وتغسل له رأسه أيضاً، قالت: «كنتُ أغسلُ رأسَ رسولِ الله ﷺ وأنا حائضٌ»^(٤).

فرعايته ﷺ لجميع وسائل النظافة أمرٌ واضحٌ غاية الوضوح في سيرته، وقد ندب إلى ذلك جميع أمته، فحثهم على سنن الفطرة؛ ليكون الإنسان على أحسن حال، وأجمل هيئة.

وكان ﷺ سهلاً هيناً ليناً في التعامل مع زوجته:

فإذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي وَصْفِ حَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَنِّي لَمْ أَطْفُ بِالْبَيْتِ حَتَّى حَجَجْتُ»، قَالَ جَابِرٌ: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا سَهْلًا، إِذَا هَوَيْتَ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ»^(٥).

«رجلاً سهلاً» أي: سهل الخلق، كريم الشئال، لطيفاً ميسراً في الخلق، كما قال الله تعالى:

﴿وَأِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) المدرى: شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سنّ من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر المتلبّد، ويستعمله من لا مشط له. النهاية [٢/ ٢٦٠]

(٢) رواه البخاري [٥٩٢٤]، ومسلم [٢١٥٦].

(٣) رواه البخاري [٢٠٢٩]، ومسلم [٢٩٧].

(٤) رواه البخاري [٣٠١]، ومسلم [٢٩٧].

(٥) رواه مسلم [١٢١٣].

أما اليومَ فكثيراً ما لا تجد بين الزوجين إلا الجدالَ، والخصامَ، والنكدَ، والمساكسة في كل شيءٍ.

وكان يقرُّ أهله على النظر إلى اللهو المباح:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِساً، فَسَمِعْنَا لَغْطاً وَصَوْتَ صَبِيٍّ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا الْحَبْشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ تَعَالِي فَاَنْظُرِي»، فَجِئْتُ، فَوَضَعْتُ لِحْيِي عَلَى مَنْكَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مَا بَيْنَ الْمَنْكَبِ إِلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ لِي: «أَمَا شَبِعْتَ، أَمَا شَبِعْتَ؟»، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: لَا؛ لِأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ^(١).

«وفيه: حسنُ خلقه الكريم، وجميلُ معاشرته لأهله»^(٢).

وقال ابن بطال: «فيه: ما كان عليه النبي ﷺ من الخلق الحسن، وما ينبغي للمرء أن يمثله مع أهله؛ من إثارة مسأرتهم، فيما لا حرج عليهم فيه»^(٣).

وفي رواية: «فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى لَعْبِهِمْ، حَتَّى كُنْتُ أَنَا الَّتِي أَنْصَرَفُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ»^(٤).

وفي رواية: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ، فَقَامَ لِي، ثُمَّ قَالَ: «حَسْبُكَ؟»، قُلْتُ: لَا تَعْجَلْ، قَالَتْ: وَمَا بِي حُبُّ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَبْلُغَ النِّسَاءَ مَقَامَهُ لِي، وَمَكَانِي مِنْهُ»^(٥).

«وفيه: أن تفسير حسنِ المعاشرة هو: الموافقة، والمساعدة على الإرادة غير المحرمة، والصبر على أخلاق النساء في غير المحرم من اللهو، وإن كان الصابر كارهاً لما يحبه أهله»^(٦).

(١) رواه الترمذي [٣٦٩١] وصححه الألباني، وأصله في البخاري [٤٥٥]، ومسلم [٨٩٢].

(٢) عمدة القاري [٧٧/٧].

(٣) شرح صحيح البخاري [٥٤٨/٢].

(٤) رواه مسلم [٨٩٢].

(٥) رواه النسائي في الكبرى [٨٩٥١]، وصححه الألباني في الصحيحة [٣٢٧٧].

(٦) شرح صحيح البخاري [٢٩٨/٧] لابن بطال.

ولم يكن ﷺ يمانع من سماع زوجته الغناء المباح في العيد:

عن عائشة قالت: دخل رسول الله ﷺ، وعندي جارتان تغنيان بغناءٍ بعاثٍ. -هو يوم جرى فيه قتال بين الأوس والخزرج، فاضطجع على الفراش، وحول وجهه، فدخل أبو بكر، فانتهرني، وقال: «مزمأ الشيطان عند رسول الله ﷺ!»، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غفل غمزتهما، فخرجتا، وكان يوم عيد^(١).

قال ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث من الفوائد: مشروعية التوسعة على العيال في أيام الأعياد بأنواع ما يحصل لهم به بسط النفس، وترويح البدن من كلف العبادَةِ... وفيه الرفق بالمرأة واستجلاب مودتها»^(٢).

فكان النبي ﷺ يرخص لهم في أوقات الأفراح، كالأعياد والنكاح في الضرب بالدفوف، والتغني مع ذلك بهذه الأشعار، وما كان في معناها.

ولكن لما فتحت بلاد فارس والروم؛ ظهر للصحابة ما كان أهل فارس والروم قد اعتادوه من الغناء الملحن بالإيقاعات الموزونة على طريقة الموسيقى، بالأشعار التي توصف فيها المحرمات من الخمر، والصور الجميلة المثيرة للهوى الكامن في النفوس، بآلات اللهو المطربة، فحينئذ أنكر الصحابة الغناء واستماعه، ونهوا عنه، وغلظوا فيه.

وهذا يدل على أنهم فهموا أن الغناء الذي رخص فيه النبي ﷺ لأصحابه لم يكن هذا الغناء، ولا آلاته هي هذه الآلات، وأنه إنما رخص فيما كان في عهده مما يتعارفه العرب بآلاتهم.

فأما غناء الأعاجم بآلاتهم فلم تتناوله الرخصة، وإن سمي غناءً، فبينهما من التباين ما لا يخفى على عاقل؛ فإن غناء الأعاجم بآلاتها يثير الهوى، ويغيّر الطباع، ويدعو إلى المعاصي، فهو رقية الزنا.

(١) رواه البخاري [٩٥٠]، ومسلم [٨٩٢].

(٢) فتح الباري [٤٤٣/٢].

وغناء الأعرابِ المرخصُ به ليسَ فيه شيءٌ من هذه المفاوِِدِ بالكَلِيةِ البتَّة... فمن قاسَ أحدهما على الآخر؛ فقد أخطأَ أقبَحَ الخطأِ، وقاسَ مع ظهور الفرقِ بين الفرعِ والأصلِ، فقياسه من أفسدِ القياسِ، وأبعدَه عن الصوابِ^(١).

فاللهو الذي أباحه النبي ﷺ لزوجته باستماعه هو اللهو البريء، والمتعة المباحة.

ولم يقتصر هديه ﷺ مع زوجته على ذلك، بل كان يسرّب إلى عائشة جوارٍ، فيلعبنَ معها باللّعب، وكان ﷺ يتحاشى تنفير هؤلاء الضيوف.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبٌ يَلْعَبَنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعَنَّ مِنْهُ^(٢)، فَيَسْرِهِنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي^(٣).

قال النووي: «وهذا من لطفه ﷺ وحسن معاشرته»^(٤).

وقد كانت أم المؤمنين عائشة تلعب بالبنات واللعب ذوات الأشكال، وكان رسول الله ﷺ يمازحها ويضحك معها.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ، وَفِي سَهْوَتِهَا^(٥) سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ، فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لَعِبٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟»، قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرْسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟»، قَالَتْ:

(١) فتح الباري [٧٨/٦] لابن رجب.

(٢) أي: يتغيّب منهُ، ويدخلن من وراء السّتر.

(٣) رواه البخاري [٦١٣٠]، ومسلم [٢٤٤٠].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [٢٠٥/١٠].

(٥) السّهوة: بيتٌ صغيرٌ منحدرٌ في الأرض قليلاً شبيه بالمخدع والخزانة. وقيل هو كالصفة تكون بين يدي البيت. وقيل: شبيه بالرّف أو الطاق يوضع فيه الشيء. النهاية [١٠٤٧/٢]

فرس، قال: «وما هذا الذي عليه؟»، قالت: جناحان، قال: «فرسٌ له جناحان!»، قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟، فضحك حتى رأيتُ نواجذه^(١).

فكم أدخلت تلك الضحكة منه ﷺ من السرور على قلب زوجته، وكم كان لتلك المداعبة من الأثر الحسن على مشاعرها.

بل إنه ﷺ حث الأزواج على هذا الأمر؛ لأنه يستدعي الوثام ويجلب المسرة إلى القلوب؛ فقال لجابر بن عبد الله لما تزوج: «هلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك، أو تضاحكها وتضحكك»^(٢).

وقال: «كلُّ شيءٍ ليس من ذكرِ الله عزَّ وجلَّ فهو هُوَ، إلا أربع خصالٍ: مشي الرجل بين الغرضين [الغرض: هو ما يقصده الرّماة بالإصابة]، وتأديبه فرسه، وملاعبة أهله، وتعلّم السّباحة»^(٣).

فالملاعبة، والمضاحكة بين الزوجين تملأ القلوب مسرةً، والبيت أنساً ومحبةً؛ فتقوى الرابطة الزوجية، وتتعمق الألفة والمودة، والمحبة بين الزوجين.

«فالمداعبة والمزح، والملاعبة هي التي تطيب قلوب النساء»^(٤).

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مع شدته وصلابته - يقول: «ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمس ما عنده وجد رجلاً»^(٥).

وقال ثابت بن عبيد: «كان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته، فإذا خرج، كان رجلاً من الرجال»^(٦).

(١) رواه أبو داود [٤٩٣٢]، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري [٢٠٩٧]، ومسلم [٧١٥].

(٣) رواه الطبراني في الكبير [١٧٨٥]، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب [١٢٨٢].

(٤) موعظة المؤمنين [ص ١٦٨].

(٥) المجالسة وجواهر العلم [٣/ ٤٣٠].

(٦) شرح السنة للبغوي [١٨٣/ ١٣].

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات، فقالت: «والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج، سكتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد، غير سائل عما فقد»^(١).

وكثير من الناس يضحك ويتسم في وجوه أصحابه وزملائه، فإذا ما دخل البيت اختفت تلك الابتسامات؛ ليصبح عابس الوجه، مقطباً جبينه.

ولم يقتصر الأمر على المضاحكة، بل كان يسابق زوجته في الجري:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: خرجت مع النَّبِيِّ ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال لي: «تعالِي؛ حتى أسابقك»، فسابقته، فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت، ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال: «تعالِي؛ حتى أسابقك»، فسابقته، فسبقني، فجعل يضحك، وهو يقول: «هذه بتلك»^(٢).

والمعنى: تقدمي عليك في هذه التوبة في مقابلة تقدمك علي في التوبة الأولى.

فالنبي الكريم ﷺ مع مشاغله الكثيرة، يراعي حاجة الزوجة إلى الترفيه، ويفعل هذا الأمر الذي يأنف بعضنا اليوم من فعله، حتى ولو كان خالياً في البر!!

بل قد يتحرّج البعض من المشي مع زوجته، فضلاً عن مسابقتها.

وكان إذا صحب أهله معه في السفر سامره، وتبادل معهن أطراف الحديث:

عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج؛ أقرع بين نسائه فطارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري، وأركب بعيرك فتنظرين وأنظري؟ قالت: بلى،

(١) موعظة المؤمنين ص [١٠٦].

(٢) رواه أحمد [٢٥٧٤٥] واللفظ له، وأبو داود [٢٥٧٨]، وابن ماجه [١٩٧٩]، وصححه الألباني في الصحيحة [١٣١].

فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلم ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة، فغارت، فلما نزلوا؛ جعلت تجعل رجلها بين الإذخر، وتقول: يا رب سلط عليّ عقرباً أو حيّة تلدغني، رسولك، ولا أستطيع أن أقول له شيئاً^(١).

وهذا الذي فعلته وقالته حملها عليه فرط الغيرة على رسول الله ﷺ، وأمر الغيرة معفو عنه.

ومن كمال شفقتة ﷺ على أهله في السفر أنه كان يوصي الحادي أن يخفف رفقاً بهنَّ.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ، وَغُلَامٌ أَسْوَدُ يَقَالُ لَهُ أَنْجِشَةُ يَحْدُو، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنْجِشَةُ، رَوَيْدُكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ»^(٢).

«سَوْقًا» أَي: ارفق في سوقك بالقوارير، يعني ضعفة النساء.

قال العلماء: سَمِيَ النِّسَاءُ قَوَارِيرَ؛ لضعف عزائمهنَّ تشبيهاً بقارورة الزجاج لضعفها، وإسراع الانكسار إليها.

والمراذبه: الرِّفْقُ فِي السَّيْرِ؛ لِأَنَّ الْإِبِلَ إِذَا سَمِعَتْ الْحِدَاءَ أَسْرَعَتْ فِي الْمَشْيِ وَاسْتَلَدَّتْهُ، فَأَزْعَجَتِ الرَّكَّابَ، فَنَهَا عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ يَضَعِفْنَ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرَكَةِ، وَيَخَافُ ضَرْهَنَّ وَسَقُوطَهُنَّ^(٣).

وكان ﷺ يقرُّ المزاح بين نسائه، ويتبسّم لذلك:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْمًا، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، إِحْدَى رِجْلَيْهِ فِي حَجَرِي، وَالْأُخْرَى فِي حَجَرِهَا، فَعَمَلْتُ لَهَا حَرِيرَةً [حساء مطبوخ من الدقيق والدسم والماء]^(٤)،

(١) رواه البخاري [٥٢١١]، ومسلم [٢٤٤٥].

(٢) رواه البخاري [٦١٦١]، ومسلم [٢٣٢٣].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [٨١/١٥].

(٤) النهاية [٩٣١/١].

فقلتُ: كلي، فأبْتُ، فقلتُ: والله لتأكلنَّ، أو لأطخنَّ وجهك، فأبْتُ، فأخذتُ منَ القصعة شيئاً، فلطّختُ به وجهها، فضحك النَّبيُّ ﷺ، فوضع فخذها لها، وقال لسودة: الطخي وجهها، فلطّختُ وجهي، فضحك النَّبيُّ ﷺ أيضاً، فإذا عمرُ يقولُ: يا عبدَ الله بنَ عمرَ، يا عبدَ الله بنَ عمرَ، فقالَ لنا رسولُ الله ﷺ: «قوما فاغسلَا وجوهكما؛ فلا أحسبُ عمرَ إلّا داخلاً»^(١).

ولو حدثَ مثل هذا في هذا الزمانِ من امرأتين، وزوجهما جالسٌ بينهما؛ فربما طلقهما جهلاً منه بهدي النَّبيِّ ﷺ في معاملة زوجاته، حيثُ كان يداعبهنَّ ويضاحكهنَّ.

وفي هذا الحديثِ: تفاعلُ النَّبيِّ ﷺ مع جوِّ المرح، وعدلُ النَّبيِّ ﷺ في المرح والمباسة. فمع أنَّه ﷺ يحبُّ عائشةَ أكثرَ من غيرها، لم يجعلهُ ذلك يميل إليها في الظاهر، بل ساعدَ زوجته الأخرى سودةً لتلطّخَ وجهَ عائشةَ بالطعام، وحصلَ ما أَراده النَّبيُّ ﷺ، وسادَ المجلسُ جوُّ من المرح والضَّحكِ والسَّرور.

ومن ملاطفته وفكاهته ﷺ مع زوجاته: حديثُ كلثومِ بنِ المصطلق قال: كانتُ زينبُ تغلي رسولَ الله ﷺ، وعندهُ امرأةُ عثمانَ بنِ مظعونٍ ونساءٌ من المهاجراتِ، وهنَّ يشتكينَ منازلهنَّ أهنَّ يخرجنَ منها، ويضيقُ عليهنَّ فيها^(٢)، فتكلّمتُ زينبُ، وتركتُ رأسَ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «إِنَّكَ لستِ تكلمينَ بعينيكِ، تكلمي، واعلمي عملكِ»، فأمرَ رسولُ الله ﷺ يومئذٍ أن يورثَ من المهاجرينَ النساءَ^(٣). وفي هذا حسنٌ ممازحته ﷺ لزوجته.

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى [٨٩١٧] وأبو بكر الشافعي في الفوائد [١١٢]، وقال العراقي في تخريج الإحياء [٤/١٦٨٢]: «إسناده جيد»، وحسنه الألباني في الصحيحة [٣١٣١].

(٢) كانوا إذا ماتَ زوج المرأة أخذ الورثة الدار، وتخرج المرأة منها وهي غريبة في دار الغرب، فلا تجد مكاناً آخر. عون المعبود [٨/٢٣١].

(٣) رواه أحمد [٢٦٥١٠] وحسنه شعيب الأرنؤوط، وأصل الحديث في سنن أبي داود [٣٠٨٠]، وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٠٨٠].

وكان يستمع لفكاهة وطرائف زوجاته:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلَتْ وَادِيًا، وَفِيهِ شَجَرَةٌ قَدْ أَكَلَ مِنْهَا، وَوَجَدْتَ شَجَرًا لَمْ يُوْكَلْ مِنْهَا، فِي أَيَّهَا كُنْتَ تَرْتَعُ بِعِيْرِكَ؟ قَالَ: «فِي الَّذِي لَمْ يَرْتَعُ مِنْهَا». تعني أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرًّا غَيْرَهَا^(١).

ومن الأمثلة على الدّعاية اللطيفة:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالْبَقِيعِ، وَأَنَا أَجْدُ صَدَاعًا فِي رَأْسِي، وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهُ، قَالَ: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ! مَا ضَرَّكَ لَوْ مَتَّ قَبْلِي، فَغَسَلْتُكَ، وَكَفَّيْتُكَ، ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكَ، وَدَفَنْتُكَ؟»، قُلْتُ: لَكَأَنِّي بَكَ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي، فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بَعْضَ نِسَائِكَ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بَدَأَ بِوَجْعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ^(٢).

وبلطفه يرعى مشاعرها	في كلّ نائبةٍ يواسيها
متجملًا من أجلها عطرًا	إنّ الذي يرضيه يرضيها
وعلى الذي هويت يتابعها	فيما يحلُّ لها، ويعطيها
وعلى جلالته يسابقها	وإذا تجاريه يجاريها
إنّ السّاحة في شريعته	واليسر أصلٌ كامنٌ فيها



(١) رواه البخاري [٥٠٧٧].

(٢) رواه أحمد [٢٤٧٢٠]، وابن ماجه [١٤٦٥]، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه [١٤٦٥]، وأصله في البخاري [٥٦٦٦].

الجانب الثاني:

تربية النبي ﷺ لنسائه؛ ليكون قدوةً لنساء المؤمنين

ومع ذلك المزاح، وتلك المداعبات، والملاطفات كان رسول الله ﷺ حريصاً على تربية نسائه؛ ليكونَ المثل الأعلى لغيرهن، منطلقاً في ذلك من مسؤوليته عليهن وهو الزوج، وهو القائل: «إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاه، أحفظَ ذلك أم ضيَّع؟ حتَّى يسألَ الرَّجلُ على أهلِ بيته»^(١).

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا كَلِّكُمْ رَاعٍ، وَكَلِّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ»^(٢).

فالرجلُ مسئولٌ عن تعليم زوجته، وإرشادها، وتوجيهها التوجيه الصحيح، وما شاعت المنكراتُ في حياة كثيرٍ من الزوجاتِ إلا بسبب تفريطِ الرجالِ في تعليمهنِ أمورَ دينهنَّ، وتقصيرهم في توفيتهنَّ حقوقهنَّ.

كان ﷺ يربي زوجاته على العبادة والتقرب إلى الله بالنوافل:

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسولُ الله ﷺ ليلةً فزعاً يقولُ: «سبحانَ اللهَ ماذا أنزلَ اللهُ من الخزائنِ، وماذا أنزلَ من الفتنِ، من يوقظُ صواحِبَ الحجراتِ^(٣)؛ لكي يصلَّينَ، ربَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة»^(٤).

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى [٩١٧٤] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [١٦٣٦].

(٢) رواه البخاري [٨٩٣]، ومسلم [١٨٢٩].

(٣) يريدُ أزواجه.

(٤) رواه البخاري [٧٠٦٩].

فلما اطلع رسول الله ﷺ على ما فتحه الله تعالى في يومٍ واحدٍ من خزائن الثواب، وما أنزله من الفتن؛ قام من نومه فرعاً من دهشته؛ لكثرة الخير والشر.

وتعجب من غفلة البشر عما يحدث حولهم من فتح خزائن الخير، وفتح أبواب الفتن مما يدعو إلى الرغبة والرغبة، والجد في العبادة؛ ولذلك أمر بإيقاظ زوجاته للصلاة.

وأشار ﷺ بذلك إلى أنه ينبغي لمن أن لا يتغافل عن العبادة، وأن لا يعتمد على مجرد كونهم أزواج النبي ﷺ.

وفي الحديث: إيقاظ الرجل أهله بالليل للعبادة لا سيما عند آية تحدث.

وإذا دخل العشرُ الأواخرُ من رمضانَ أيقظهنَّ للقيام والعبادة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشرُ شدَّ منظره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»^(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشرِ الأخير من رمضان»^(٢).

«فكان النبي ﷺ يوقظ أهله في العشرِ الأخير من رمضان للصلاة بالليل، والذكر، والدعاء، وأما في سائر السنة فكان إيقاظه لهم للوتر خاصة؛ فإنه من أكد السنن الرواتب»^(٣).

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل، فإذا أوتر قال: «قومي، فأوترِي يا عائشة»^(٤).

(١) رواه البخاري [٢٠٢٤]، ومسلم [١١٧٤].

(٢) رواه الترمذي [٧٢٥]، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي [٢٩٦/٢]

(٣) فتح الباري [٢٥١/٦] لابن رجب.

(٤) رواه البخاري [٥١٢]، ومسلم [٧٤٤].

وَيَرْبِيَهُنَّ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّى الصُّبْحَ، ثُمَّ دَخَلَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَعْتَكِفَ فِيهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ الْعَشْرَ الْأَوَّخَرَ مِنْ رَمَضَانَ فَأَمَرَ فَضْرَبَ لَهُ خَبَاءً، فَاسْتَأْذَنَتْهُ عَائِشَةُ أَنْ تَعْتَكِفَ، فَأَذِنَ لَهَا فَضْرَبَتْ فِيهِ قَبَّةً، فَسَمِعَتْ بِهَا حَفْصَةُ، فَضْرَبَتْ قَبَّةً، وَسَمِعَتْ زَيْنَبُ بِهَا فَضْرَبَتْ قَبَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَدَاةِ أَبْصَرَ أَرْبَعَ قِبَابٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟!»، فَأَخْبَرَ خَبْرَهُنَّ، فَقَالَ: «أَلَبَرَّ تَرَدْنَ».

وفي رواية: «ما حملهنَّ على هذا؟ أَلَبَرُّ؟!»، فَأَمَرَ بِخَبَائِهِ فَقَوَّضَ [أي: قلع وأزِيل]، وقال: «انزعوها فلا أراها»، فنزعَتْ، فلمْ يَعْتَكِفْ فِي رَمَضَانَ، واعتكفَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ^(١). فقال ﷺ هذا الكلام إنكاراً لفعلهنَّ، وسببُ إنكاره أَنَّهُ خَافَ أَنْ يَكُنَّ غَيْرَ مُخْلِصَاتٍ فِي الْإِعْتِكَافِ، بَلْ أَرَدْنَ الْقُرْبَ مِنْهُ؛ لِغَيْرَتِهِنَّ عَلَيْهِ.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وكانه ﷺ خشي أن يكون الحاملُ لهنَّ على ذلك المباهاة والتنافس النَّاشئ عن الغيرة؛ حرصاً على القرب منه خاصةً، فيخرج الاعتكاف عن موضوعه»^(٢).

وكان يعلم زوجته الاستعاذة من الشرور:

فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيزِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»^(٣).

الغاسق هو: الظلمة، إِذَا وَقَبَ: غاب، «وأكثر المفسرين أن الغاسق هو الليل»^(٤).

(١) رواه البخاري [٢٠٣٣]، ومسلم [١١٧٣].

(٢) فتح الباري [٢٧٦/٤].

(٣) رواه الترمذي [٣٢٨٨]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٧٩١٦].

(٤) بدائع الفوائد [٤٤٢/٢].

وإنما أمر بالتعوذ من الليل؛ لأن الآفات تنتشر فيه.

وكون الغاسق هو الليل لا يعارض ما في الحديث من أنه القمر؛ لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه^(١).

وفي الحديث: بيان اهتمام النبي ﷺ بتعليم زوجته، حيث أخذ بيدها، ثم أشار إلى مراده، ثم أمرها بالفعل، وبين لها السبب.

ويعلمهنَّ الأذكارَ النافعةَ كأذكار الصباح والمساء:

عن جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدَهَا بِكَرَّةٍ حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟»، قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتُ بِعَدِكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتَ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمَدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(٢).

أي: لو قوبلت الكلمات الأربع التي قلتها ثلاث مرّاتٍ، بما قلت من أولِ نهارك من الأذكار؛ لساوتهنَّ^(٣).

فقد يكون بعض الأذكار أفضل من بعضٍ؛ لعمومها، وشمولها، واشتمالها على جميع الأوصاف الذاتية والفعلية، فيكون القليل من هذا النوع أفضل من الكثير من غيره^(٤).

فدلّها وأرشدّها تخفيفاً لها وتكثيراً لأجورها، من دون تعبٍ ولا نصبٍ.

(١) تفسير ابن كثير [٨ / ٥٣٦].

(٢) رواه مسلم [٢٧٢٦].

(٣) شرح أبي داود [٥ / ٤١٤] للنعيني.

(٤) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي [٣ / ٧٨].

وكان يرشدهنَّ للأفضل والأيسر في العبادة:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ أَدْخَلَ الْبَيْتَ، فَأُصَلِّيَ فِيهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي، فَأَدْخَلَنِي فِي الْحَجَرِ، فَقَالَ: «صَلِّي فِي الْحَجَرِ إِذَا أُرِدْتَ دُخُولَ الْبَيْتِ؛ فَإِنَّهَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَيْتِ»^(١).

في هذا الحديث: كَيْفَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهَا أَنَّ الْحَجَرَ مِنَ الْبَيْتِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصَلِّيَ دَاخِلَ الْكَعْبَةِ؛ فَلْيَصِلْ فِي الْحَجَرِ.

وكان يأمرُ أهله بالاعتصام في العبادة وعدم التشديد على النفس:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟»، قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لَزِينَبَ، تَصَلِّي، فَإِذَا كَسَلَتْ، أَوْ فُتِرَتْ؛ أَمْسَكَتْ بِهِ، فَقَالَ: «حَلَّوْهُ، لِيَصِلَ أَحَدُكُمْ نَشَاطُهُ، فَإِذَا كَسَلَ أَوْ فُتِرَ فَلْيَقْعُدْ»^(٢).

قال النووي: «فيه: الحثُّ على الاعتصام في العبادة، والنَّهْيُ عَنِ التَّعَمُّقِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا بِنَشَاطٍ، وَأَنَّهُ إِذَا فُتِرَ فَلْيَقْعُدْ حَتَّى يَذْهَبَ الْفُتُورُ»^(٣).

ولما ذكرت له عائشة حال امرأة تقوم الليل ولا تنام، كره ذلك:

عن عروة بن الزبير أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ الْحَوْلَاءَ بَنَتْ تَوَيْتَ مَرَّتَ بِهَا وَعِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: هَذِهِ الْحَوْلَاءُ بَنَتْ تَوَيْتَ وَزَعَمُوا أَنَّهَا لَا تَنَامُ اللَّيْلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَنَامُ اللَّيْلَ؟! خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تَطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَمُ اللَّهُ حَتَّى تَسْأَمُوا»^(٤).

(١) رواه الترمذي [٨٠٢]، والنسائي [٢٩١٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٧٩٢].

(٢) رواه البخاري [١١٥٠]، ومسلم [٧٨٤].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [٧٣/٦].

(٤) رواه البخاري [٤٣]، ومسلم [٧٨٥]، واللفظ له.

أراد ﷺ بقوله: «لا تنام الليل» الإنكار عليها، وكراهة فعلها وتشديدها على نفسها^(١).

وكان يحثهن على المداومة على الأعمال الصالحة، وإن كانت قليلة:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدُومُهَا وَإِنْ قَلَّ».

قَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «وَكُنْتُ عَائِشَةً إِذَا عَمَلْتُ الْعَمَلَ لَزِمْتُهُ»^(٢).

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «إِنَّمَا أَحَبُّ الدَّائِمِ لِمُعْنِيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ التَّارِكَ لِلْعَمَلِ بَعْدَ الدَّخُولِ فِيهِ كَالْمَعْرُضِ عَنْهُ.

وَالثَّانِي: أَنْ مَدَاوِمَ الْخَيْرِ مِلَازِمَ الْخِدْمَةِ، وَلَيْسَ مِنْ لَازِمِ الْبَابِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا مَا، كَمَنْ

لَازِمَ يَوْمًا كَامِلًا، ثُمَّ انْقَطَعَ»^(٣).

وكان يعظ زوجاته ويحثهن على الصدقة والإنفاق في الخير:

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ اسْتَتِرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشَقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الْجَائِعِ مَسَدَهَا مِنَ الشَّيْبَانِ»^(٤).

شَقُّ التَّمْرَةِ: نَصْفُهَا وَجَانِبُهَا، وَالْمَعْنَى: وَلَوْ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنْهَا، أَوْ مِنْ غَيْرِهَا.

فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّ عَائِشَةَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَهَا، وَبَيْنَ النَّارِ سِتْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ، وَعَمَلِ الْبِرِّ، وَلَوْ بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ، فَالْيَسِيرُ مِنَ الصَّدَقَةِ يَسْتُرُ الْمُتَصَدِّقَ مِنَ النَّارِ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ سَائِلٌ مَرَّةً، وَعِنْدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرْتُ لَهُ بِشَيْءٍ،

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [٧٣/٦].

(٢) رواه البخاري [٦٤٦٥]، ومسلم [٧٨٣]، واللفظ له.

(٣) فتح الباري [١٠٣/١].

(٤) رواه أحمد [٢٣٩٨٠]. وحسنه ابن حجر في فتح الباري [٣/٣٣٤]، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب [٨٦٥].

ثُمَّ دَعَوْتُ بِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ^(١)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرِيدِينَ أَنْ لَا يَدْخَلَ بَيْتُكَ شَيْءٌ، وَلَا يُخْرَجَ إِلَّا بِعِلْمِكَ»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، لَا تَحْصِي؛ فَيَحْصِيَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْكَ»^(٢).

«وَالْإِحْصَاءُ: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشَّيْءِ وَزَنًّا أَوْ عَدَدًا، وَالْمَعْنَى: النَّهْيُ عَنْ مَنَعِ الصَّدَقَةِ؛ خَشْيَةُ النَّفَادِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ الْأَسْبَابِ لِقَطْعِ مَادَّةِ الْبَرَكَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَثِيبُ عَلَى الْعَطَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَمَنْ لَا يَحَاسِبُ عِنْدَ الْجَزَاءِ؛ لَا يَحْسِبُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَطَاءِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ فَحَقُّهُ أَنْ يُعْطِيَ وَلَا يَحْسَبَ»^(٣).

وعندما ذبح أهل النبي ﷺ شاةً، سأل النبي ﷺ: «ما بقي منها؟»، قالت عائشة: يا رسول الله ما بقي إلا كتفها، فقال ﷺ: «كلها قد بقي، إلا كتفها»^(٤).

أي: ما تصدقت به فهو باقٍ، وما بقي عندك فهو غير باقٍ، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]^(٥).

وَيَنْ لَهُنَّ أَنْ أَكْثَرَهُنَّ تَصَدَّقْنَ لِحَاقًا بِهِ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْرَعَنَّ لِحَاقًا بِي أَطُولُكُمْ يَدًا»، قَالَتْ: فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَتَيْتَهُنَّ أَطُولُ يَدًا، قَالَتْ: فَكَانَتْ أَطُولُنَا يَدًا زَيْنَبُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا، وَتَصَدَّقُ^(٦).

«وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّهُنَّ ظَنَنَّ أَنْ الْمَرَادَ بِطُولِ الْيَدِ طُولُ الْيَدِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَهِيَ الْجَارِحَةُ، فَكُنَّ

(١) أي: نظرت في الشيء الذي تصدقت منه؛ لتتظَرَّ كم نقص منه.

(٢) رواه أبو داود [١٧٠٠]، والنسائي [٢٥٤٩] واللفظ له، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٧٩٣٢].

(٣) فتح الباري [٣٠٠/٣] لابن حجر.

(٤) رواه الترمذي [٢٣٩٤]، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٥٤٤].

(٥) تحفة الأحوذى [١٤٢/٧].

(٦) رواه البخاري [١٤٢٠]، ومسلم [٢٤٥٢].

يذر عن أيديهن بقصبة، فكانت سودة أطولهن جارحة، وكانت زينب أطولهن يداً في الصدقة وفعل الخير، فماتت زينب أولهن، فعلموا أن المراد طول اليد في الصدقة والجود^(١).
فهذا الحديث تضمن أن الإيثار والاستكثار من الصدقة في زمن القدرة على العمل سبب للحاق بالنبي ﷺ، وذلك الغاية في الفضيلة^(٢).

وكان يريهن على البر والصلة:

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ عَلِيٌّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي الْقَعِيسِ بَعْدَ مَا أَنْزَلَ الْحِجَابُ، فَقُلْتُ: لَا أَذْنُ لَهُ حَتَّى اسْتَأْذَنَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِنَّ أَخَاهُ أَبَا الْقَعِيسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، وَلَكِنْ أَرْضَعَنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقَعِيسِ، فَدَخَلَ عَلِيُّ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْقَعِيسِ اسْتَأْذَنَ، فَأَبَيْتُ أَنْ أَذْنَ لَهُ حَتَّى اسْتَأْذَنَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا مَنَعُكَ أَنْ تَأْذَنِي لِعَمَلِكِ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، وَلَكِنْ أَرْضَعَنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقَعِيسِ، فَقَالَ: «إِذْنِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ عَمَلِكِ، تَرَبَّتْ يَمِينُكَ»^(٣).

وكان ينهى زوجاته عن الكلام بغير علم:

كان من هديه ﷺ تحذيرهن من القول على الله بغير علم، حتى لا تستعجل الزوجة في الفتوى، أو تتسرع في الحكم.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِهَذَا عَصْفُورٍ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السَّوَاءَ، وَلَمْ يَدْرِكْهُ، قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»^(٤).

(١) قاله النووي في شرح صحيح مسلم [٨/١٦].

(٢) فتح الباري [٣/٢٨٦].

(٣) رواه البخاري [٤٧٩٦]، ومسلم [١٤٤٥].

(٤) رواه مسلم [٢٦٦٢].

قال النووي: «أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفاً.

وأجابوا عن حديث عائشة هذا بأنه نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع»^(١).

وكان يأمر أهله بالتقوى ومكارم الأخلاق:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال لي النبي ﷺ: «يا عائشة عليك بتقوى الله عزَّ وجلَّ والرفق؛ فإن الرفق لم يك في شيء قطُّ إلا زانه، ولم ينزع من شيء قطُّ إلا شانه»^(٢).
«إلا زانه»: أي زينته وكمّله «إلا شانه»: أي عيبه ونقصه^(٣).

وكان يريهنَّ على الرفق والحلم والأناة:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة، ارفقي؛ فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيراً؛ دلهم على باب الرفق»^(٤).

وكان يريهنَّ على حسن القول، وينهاهنَّ عن الفحش في الكلام حتى مع غير المسلمين:

فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السَّام عليكم^(٥)، فقال: «وعليكم»، فقلت: السَّام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإيالك والعنف، أو الفحش»، قالت: أو لم تسمع

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [٢٠٧/١٦].

(٢) رواه أحمد [٢٣٧٨٦]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٧٩٢٧]، وهو في مسلم [٢٥٩٤] مختصراً.

(٣) عون المعبود [١١٣/١٣].

(٤) رواه أحمد [٢٣٩٠٦]، وصححه الألباني في الصحيحة برقم [٥٢٣].

(٥) السَّام: الموت.

ما قالوا؟ قال: «أَو لَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيَسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ»^(١).

وفي رواية لمسلم قال: «مَهْ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَحْشَ وَالتَّفَحُّشَ»^(٢).

وكان النبي ﷺ يعلمُ زوجاته أمورَ العقيدة، ويربيهن على الخوف من الله تعالى، فإذا ظهر سحباب في السماء، أو أقبلت ريح، دخل وخرج وتغير لونه.

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا؛ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَتَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ؛ فَرَحُوا رَجَاءً أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتُهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرُنَا»^(٣).

العارض: السحاب المعترض في الأفق.

وكان يبين لهن ما يقع فيه الناس من المنكرات العقائدية:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ ذَكَرْتُ بَعْضَ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْتُهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يَقَالُ لَهَا مَارِيَّةُ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَتَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، فَذَكَرْنَا مِنْ حَسَنَتِهَا وَتَصَاوِيرِ فِيهَا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ؛ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ، أُولَئِكَ شَرُّ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»^(٤).

وفي هذا: عنايته بالتنبيه على الأخطاء العقائدية، وتحذير أهله منها.

(١) رواه البخاري [٢٩٣٥]، ومسلم [٢١٦٥].

(٢) «مَهْ»: كلمة زجرٍ عن الشيء، والفحش هو القبيح من القول والفعل.

(٣) رواه البخاري [٤٨٢٩]، ومسلم [٨٩٩].

(٤) رواه البخاري [٤٢٧]، ومسلم [٥٢٨].

وكان ﷺ لا يسكت عن منكر يراه في بيته، بل يسارع إلى إزالته:

فحماية الأهل من المنكرات من الواجبات العظيمة على كل زوج، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿فَوَأْنَفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل عليَّ النَّبِيُّ ﷺ، وفي البيت قرامٌ فيه صورٌ [القرام هو الستر] فتلون وجهه، ثم تناول السرَّ، فتهكَّه، وقال: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يَصُورُونَ هَذِهِ الصُّورَ»^(١).

فأنكر عليها بالفعل والقول.

وكان ينكر ما قد يصدر منهن من قول فيه تحقير للناس:

قالت عائشة: وحكى لهُ إنساناً^(٢)، فقال: «ما أحبُّ أني حكيتُ إنساناً وأن لي كذا وكذا»^(٣). أي: ما يسرني بأن أفعل مثل فعله أو أقول مثل قوله على وجه التنقيص، ولو أعطيت كذا وكذا من الدنيا، أي: شيئاً كثيراً على ذلك^(٤).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنَ الْغِيْبَةِ الْمَحْرَمَةِ الْمَحَاكَاةُ، بِأَنْ يَمْشِيَ مُتَعَارِجاً، أَوْ مُطَاطِعَ رَأْسِهِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْهَيْئَاتِ»^(٥).

وكان ﷺ يحذّر أزواجه من صفات الذنوب فضلاً عن كبائرها:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا عائشةُ إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ [وفي رواية: إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ]؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِباً»^(٦).

(١) رواه البخاري [٦١٠٩].

(٢) أي: فعلت مثل فعله.

(٣) رواه أبو داود [٤٨٧٥]، والترمذي [٢٥٠٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٥٥١٥].

(٤) عون المعبود [١٣/١٥١].

(٥) تحفة الأحوذى [١٧٦/٧].

(٦) رواه ابن ماجه [٤٢٤٣]، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه [٣٤٢١].

«محقرات الأعمال»: هي الذنوب التي يحتقرها فاعلمها، ولا يبالي بها.

«طالباً» أي: مكلفاً، فعرض عليه أن يطلبها، فيكتبها فهي عند الله تعالى عزيمة حيث خصّ لأجلها ملكاً^(١).

وكان نساء النبي ﷺ يراجعنه في بعض المسائل المشكلة:

فعن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب»، قالت عائشة: فقلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك»^(٢).

وكان ﷺ يغار على نسائه:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث^(٣)، فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان^(٤)، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعرف ما هاهنا، لا يدخلن عليكن»، قالت: فحجبه^(٥).

ودخول هذا المخنث أولاً على أمهات المؤمنين كان سببه أنهم كانوا يعتقدونه من غير أولي

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه [٥٩ / ٨].

(٢) رواه البخاري [١٠٣]، ومسلم [٢٨٧٦].

(٣) المخنث: وهو الذي يشبه النساء في أخلاقه وكلامه وحرركاته، وتارة يكون هذا خلقه من الأصل، وتارة بتكلف.

(٤) ومعناه أن لها أربع عكن تقبل بهن، من كل ناحية ثنتان، ولكل واحدة طرفان، فإذا أدبرت صارت الأطراف ثمانية.

(٥) رواه البخاري [٤٣٢٤]، ومسلم [٢١٨١].

الإربة، وأنه مباح دخوله عليهن، فلما سمع منه هذا الكلام؛ علم أنه من أولي الإربة، فمنعه ﷺ من الدخول.

وإنما حجبهُ عن الدخول إلى النساء لما سمعه يصف المرأة بهذه الصفة التي تهيج قلوب الرجال، فمنعه؛ لئلا يصف الأزواج للناس؛ فيسقط معنى الحجاب.

ويستفاد منه حجبُ النساءِ عمن يفتنُ لمحاسنهن، وهذا الحديث أصلٌ في إبعاد من يسترابُ به في أمر من الأمور^(١).

هكذا كان النبي ﷺ يغارُ على نسائه، بخلاف ما يحاول بعض المتحللين فعله اليوم في مجتمعاتنا من إضعاف الغيرة، ومحوها من النفوس، فتجد الرجل منهم لا يكثرُ إن جالست زوجته، أو أخته، أو ابنته رجلاً أجنبيّاً عنها.

ومن منهجه ﷺ إحسان الظنِّ بهنَّ وعدم تخوينهن:

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَطْرُقُ أَهْلَهُ، كَانَ لَا يَدْخُلُ إِلَّا غَدَوَةً أَوْ عَشِيَّةً^(٢).
«لا يطرق أهله» أي: لا يدخل عليهم ليلاً إذا قدم من سفر، والطروق هو الإتيان في الليل، وكل آتٍ في الليل فهو طارق^(٣).

بل ونهى الرجال عن ذلك:

فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلاً، يَتَخَوَّنَهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثْرَاتِهِمْ^(٤).

ومعنى «يتخَوَّنَهُمْ»: يظنُّ خيانتهم، ويكشفُ أَسْتَارَهُمْ، ويكشفُ هل خانوا أم لا؟

(١) فتح الباري [٣٣٦/٩].

(٢) رواه البخاري [١٨٠٠]، ومسلم [١٩٢٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [٧١/١٣].

(٤) رواه البخاري [١٨٠١]، ومسلم [٧١٥].

فيكره لمن طال سفره أن يقدم على امرأته ليلاً بغتة، فأما من كان سفره قريباً فتوقع امرأته إتيانه ليلاً فلا بأس.

قال ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث: الحث على التواد والتحاب خصوصاً بين الزوجين؛ لأن الشارع راعى ذلك بين الزوجين مع اطلاع كل منهما على ما جرت العادة بستره حتى إن كل واحد منهما لا يخفى عنه من عيوب الآخر شيء في الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق؛ لئلا يطلع على ما تنفر نفسه عنه؛ فيكون مراعاة ذلك في غير الزوجين بطريق الأولى»^(١).

ومن حكم عدم طرق الأهل ليلاً، أو فجأة: أن تستعد المرأة لقدم زوجها.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قدم أحدكم ليلاً، فلا يأتين أهله طروقاً؛ حتى تستحد المغيبة، وتمشط الشعثة»^(٢).

«المغيبة»: التي غاب زوجها، «تستحد»: أي: تزيل شعر عانتها.

وهذا الحكم خاص بمن يكون في سفر، ويطول الغيبة كما جاء في لفظ آخر: «إذا أطال أحدكم الغيبة، فلا يطرق أهله ليلاً».

«فالتقييد فيه بطول الغيبة يشير إلى أن علة النهي إنما توجد حينئذ، فالحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً».

فلما كان الذي يخرج لحاجته مثلاً نهراً ويرجع ليلاً لا يتأتى له ما يحذر من الذي يطيل الغيبة كان طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم، فيقع الذي يهجم بعد طول الغيبة غالباً ما يكره، إما أن يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة فيكون ذلك سبب النفرة بينهما»^(٣).

وأما من أعلم أهله بوصوله وأنه يقدم في وقت كذا مثلاً فلا يتناول هذا النهي.

(١) فتح الباري [٣٤١ / ٩].

(٢) رواه البخاري [٥٢٤٦]، ومسلم [٧١٥].

(٣) فتح الباري [٣٤٠ / ٩].

وكان ﷺ حكيماً في تعامله مع غيره نساءه:

فإن غيره المرأة على زوجها هي طبيعة من طبائع الأنوثة التي فطرت عليها.

وفي بعض الآثار: «إن الله كتب الغيرة على النساء»^(١).

فالغيرة جزء من طبيعة المرأة وخلقها، وكان نساء النبي ﷺ يغرن عليه.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلاً، قَالَتْ: فَغَرْتُ عَلَيْهِ [أَي: اضطربت أفعالي وتغيرت أحوالي]، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا عَائِشَةُ، أَغَرَّتِ؟»، فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَدَّ جَاءَكَ شَيْطَانُكَ؟»^(٢)، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ»^(٣)»^(٤).

وفي قصة أخرى نرى أن الغيرة تدفع أم المؤمنين عائشة إلى أن تمشي وراء النبي ﷺ؛ لترى أين يذهب، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رِيثًا ظَنَّ أَنَّ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رَوِيْدًا، وَانْتَعَلَ رَوِيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رَوِيْدًا^(٥)، فَجَعَلْتُ دَرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّنْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ،

(١) وقد رواه الطبراني [١٠٠٤٠]، وغيره عن ابن مسعود مرفوعاً، ولكنه ضعيف، ضعفه الألباني في ضعيف الجامع [١٦٢٦].

(٢) أي: فأوقع عليك أنني قد ذهبت إلى بعض أزواجي فأنت لذلك متحيرة متفتشة عني.

(٣) «فأسلم» على صيغة الماضي أي: فصار مسلماً، فلا يدلني على سوء، أو على صيغة المضارع أي: فأنا سالم من شره. حاشية السندي على النسائي [٧٣/٧].

(٤) رواه مسلم [٢٨١٥].

(٥) أي: قليلاً لطيفاً لئلا ينبهها، وإنما فعل ذلك ﷺ في خفية؛ لئلا يوقظها ويخرج عنها، فربما لحقها وحشة في انفرادها في ظلمة الليل.

حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فتهوّل فتهوّل، فأحضر فأحضرت [الإحضر: العدو]، فسبقت، فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت، فدخل فقال: «ما لك يا عائش حشياً رابية؟»^(١)، قلت: لا شيء، قال: «لتخبريني، أو ليخبرني اللطيف الخبير»، قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال: «فأنت السوداء الذي رأيت أمامي؟»، قلت: نعم، فلهدي في صدري لهدّة أوجعتني»^(٢)، ثم قال: «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟»^(٣)، فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأجبت، ولم يكن يدخل عليك، وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»^(٤).

فأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالرغم مما كانت تعرفه من مكانتها من قلب رسول الله ﷺ كانت تغار عليه من سائر زوجاته، بل كانت تغار ممن ماتت من نسائه، فكانت تقول: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة»^(٥).

وكان النبي ﷺ حكيماً في معاملته مع نسائه إذا لاحظ عليهن الغيرة، ولم يكن يفعل ما يفعله بعض الناس اليوم، فمن الناس من إذا لاحظ على زوجته غيرة نهرها، وزجرها، ونهاها أن تسأل عما يفعل؛ فتكبر بذلك المشكلة، وتزداد غيرة الزوجة، ويزداد شكها؛ وذلك نتيجة سوء تصرف الزوج في مثل هذه المواقف، وفقدانه للحكمة التي ينبغي أن يتعلمها من رسول الله ﷺ.

(١) حشياً: أي مرتفعة النفس متواترته كما يحصل للمسرّع في المشي، رابية: أي مرتفعة البطن.

(٢) اللهد: هو الدفع الشديد في الصدر، وهذا كان تأديباً لها من سوء الظن.

(٣) من الحيف بمعنى الجور بأن يدخل الرسول في نوبتك على غيرك.

(٤) رواه مسلم [٩٧٤].

(٥) رواه البخاري [٣٨١٦]، ومسلم [٢٤٣٥].

فكان رسول الله ﷺ يقابل هذه الغيرة تارةً بابتسامه، وتارةً بتوجيه لين، وتارةً بعتاب إذا مسَّ الأمر غيره.

عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ^(١)، فَأَرْسَلْتُ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ^(٢) بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ؛ فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ، فَاَنْفَلَقْتُ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَقَّ الصَّحْفَةَ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «غَارَتْ أَمْكُمْ»، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أَتَى بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَسَرْتُ صَحْفَتَهَا، وَأَمْسَكَتُ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ كَسَرْتُ^(٣).
ففي هذه القصة دلالةٌ على رفقهِ ﷺ بأهله، فلم ينهر التي كسرت القصعة، ولم يغضب منها، ولم يقل لها كلمةً، بل التمس لها العذر، وفي نفس الوقت لم يخس حقَّ التي كسرت قصعتها، وإنما ضمن لها مثلها.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه إشارةٌ إلى عدم مؤاخذه الغيرة بما يصدر منها؛ لأنَّها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة»^(٤).

وينكرُ عليها ما قد يقع منها من لفظ غير مستساغٍ في حقِّ ضرتها:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسِبَكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا - تعني: قصيرة - فَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مَزَجْتُ بِهَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجْتُهُ»^(٥).
أي: غلبته، وغيَّرتُه، وأفسدته.

(١) وهي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقيل: أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) رواه البخاري [٥٢٣٥].

(٤) فتح الباري [٣٢٥ / ٩].

(٥) رواه أبو داود [٤٨٧٥]، والترمذي [٢٥٠٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٥١٤٠].

والمعنى: أن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر؛ لغيرته عن حاله، مع كثرته وغزارته، فكيف بأعمال نزره خلطت بها؟^(١).

وكان يتركهن؛ ليقترضن من بعضهن:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ حَزِينِينَ: فَحَزَبٌ فِيهِ عَائِشَةُ، وَحَفْصَةُ، وَصَفِيَّةُ، وَسُودَةُ، وَالْحَزْبُ الْآخِرُ أُمُّ سَلَمَةَ، وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةً يَرِيدُ أَنْ يَهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَخْرَجَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ بَعَثَ صَاحِبُ الْهَدِيَّةِ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَكَلَّمَ حَزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَكَلِّمُ النَّاسَ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّةً؛ فَلْيَهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ، فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا، فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، فَقُلْنَ لَهَا: فَكَلِّمِيهِ، قَالَتْ: فَكَلَّمْتُهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضًا، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِيهِ حَتَّى يَكَلِّمَكَ، فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَا تُؤْذِنِي فِي عَائِشَةَ؛ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتَنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ»، فَقَالَتْ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِيَ فِي مِرْطِي^(٢)، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنِي يَسْأَلُنَّكَ الْعَدْلَ فِي بِنْتِ ابْنِ أَبِي قَحَافَةَ، وَأَنَا سَاكِنَةٌ^(٣)، فَقَالَ: «يَا بَنِيَّةُ أَلَا تَحْيَيْنَ مَا أَحَبُّ؟»، قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: «فَأَحْبَبِي هَذِهِ»، فَقَامَتْ فَاطِمَةُ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ،

(١) تحفة الأحوذى [١٧٧/٧].

(٢) «المِرْطُ»: كَسَاءٌ مِنْ خَزٍّ أَوْ صُوفٍ أَوْ كَتَّانٍ. لِسَانُ الْعَرَبِ [٣٩٩/٧].

(٣) المراد: أَنَّهُنَّ يَطْلُبْنَ الْعَدْلَ وَالْمَسَاوَاةَ فِي قَضِيَّةِ الْهَدَايَا، بِحَيْثُ لَا تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِيَوْمِ عَائِشَةَ، وَالنَّبِيُّ مُعْذُورٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ إِرْسَالَ الْهَدَايَا لَيْسَ مِنْ فَعْلِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَعْلِ النَّاسِ، وَمِنْ غَيْرِ اللَّاتِقِ أَنْ يَجِدَّ لِلنَّاسِ وَقْتُ إِرْسَالِ هَدَايَاهُمْ، وَإِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ فِيهِ نَوْعٌ تَجَوُّزٌ، وَلَكِنَّهُنَّ مُعْذُورَاتٌ بِهَذَا الْقَوْلِ لِأَنَّ الْحَامِلَ عَلَيْهَا هُوَ الْغِيْرَةُ.

فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراكِ أغنيتِ عنا من شيء؛ فارجعي إلى رسول الله ﷺ، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً، فأرسلن زينب بنت جحش، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشدّ ابتداءً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفئمة^(١)، فذهبت زينب حتى استأذنت، ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحال التي دخلت فاطمة وهو بها، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وقعت بي؛ فاستطالت عليّ، قالت عائشة: وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، قال: فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتها، قالت عائشة: فلما وقعت بها لم أنشبهها حتى أنحيث عليها^(٢)، فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وتبسم وقال: «إنها بنت أبي بكر»^(٣). إشارة إلى كمال فهمها، ومتانة عقلها حيث صبرت إلى أن ثبت أن التعدي من جانب الخصم، ثم أجابت بجواب إلزام.

قال ابن حجر رحمه الله: «وفيه: تنافس الضرائر وتغايرهن على الرجل، وأن الرجل يسعه السكوت إذا تناولن، ولا يميل مع بعض على بعض»^(٤).

(١) ومعنى الكلام: أنها كاملة الأوصاف إلا أن فيها شدة خلق وسرعة غضب تسرع منها الفئمة أي الرجوع. شرح النووي [٢٠٦/١٥].

(٢) أي: بالغت في جوابها وأفحمتها.

(٣) رواه البخاري [٢٥٨١]، ومسلم [٢٤٤٢].

(٤) فتح الباري [٢٠٨/٥].

الجانب الثالث:

حلول المشكلات في البيت النبوي

لقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهرات حياة سعيدة طيبة، تمثل تطبيقاً عملياً لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

ولكن لا بد أن تثور بعض المشكلات في هذا البيت الكريم، فلا يخلو بيت من مشكلات حتى بيت النبوة.

فالرسول الزوج ﷺ يعتبر قدوة لكل زوج؛ لذلك لا بد من حدوث بعض المشكلات في بيت النبوة؛ حتى يعلمنا الله من خلالها هدي نبيه ﷺ في التعامل معها.

وهذه المسألة مهمة جداً لكل زوج، فليس حدوث المشكلات في البيت هو الخطر؛ لأنه لا يخلو بيت من مشكلات، ولكن الخطورة ألا تعالج هذه المشكلات بالحكمة والإنصاف؛ فتتفاقم، ويحدث الهجر، والطلاق.

كيف كان رسول الله ﷺ يتعامل، ويعالج هذه المشكلات؟

لقد مرت ببيت النبوة مشكلات عصبية، كحادثة الإفك، وقصة المطالبة بالنفقة، وقصة مارية وتحريم النبي ﷺ لها.

وسنذكر بعض هذه الحوادث، وننظر كيف تعامل النبي ﷺ معها.

أما قصة الإفك: فهي تلك المحنة العظيمة التي عرضت لأم المؤمنين رضي الله عنها، وحدث فيها من البلاء ما حدث، حتى برأها الله من فوق سبع سماوات.

تروي أم المؤمنين عائشة هذه القصة لنا، فتقول: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها،

فخرجَ فيها سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله ﷺ، وذلكَ بعدَ ما أنزلَ الحجابُ، فأنا أحملُ في هودجي، وأنزلُ فيه مسيرنا، حتَّى إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من غزوه، وقفلَ، ودنونا من المدينة؛ أذنَ ليلةَ بالرحيلِ، فقمْتُ حينَ آذنوا بالرحيلِ، فمشيتُ حتَّى جاوزتُ الجيشَ، فلما قضيتُ من شأني أقبلتُ إلى الرحلِ، فلمستُ صدري، فإذا عقدي من جزعِ ظفارٍ قد انقطعَ، فرجعتُ فالتمستُ عقدي، فحبسني ابتغاؤه^(١)، وأقبلَ الرَّهطُ الَّذِينَ كانوا يرحلونَ لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الَّذي كنتُ أركبُ، وهم يحسبونَ أنَّي فيه، قالتُ: وكانتِ النساءُ إذ ذاكَ خفافاً لم يهبلنَ^(٢)، ولم يغشهنَّ اللحمُ، إنَّما يأكلنَ العلقَةَ من الطَّعامِ، فلم يستنكرِ القومُ ثقلَ الهودجِ حينَ رحلوه ورفعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا، ووجدتُ عقدي بعدَ ما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منازلهم، وليسَ بها داعٍ ولا مجيبٌ، فتيَّممتُ منزلي الَّذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيفقدوني، فيرجعونَ إليَّ، فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني، فنمتُ، وكانَ صفوانُ بنُ المعطلِ السَّلَمِيُّ قد عرَّسَ من وراءِ الجيشِ فادَّلَجَ^(٣)، فأصبحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني، فعرفني حينَ رآني، وقد كانَ يراني قبلَ أنْ يضربَ الحجابَ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعِهِ حينَ عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِهِ، حتَّى أناخَ راحلتهُ، فوطئَ على يدها، فركبتها، فانطلقَ يقودُ بي الرَّاحلةَ حتَّى أتينا الجيشَ، بعدَ ما نزلوا موغرينَ في نحرِ الظَّهيرِ، فهلكَ من هلكَ في شأني، وكانَ الَّذي تولى كبره عبدُ الله بنُ أبي ابنِ سلولَ، فقدما المدينةَ، فاشتكيْتُ حينَ قدما المدينةَ شهراً، والنَّاسُ يفيضونَ في قولِ أهلِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلكَ، وهو يريني في وجعي أنَّي لا أعرفُ من رسولِ الله ﷺ اللَّطفَ الَّذي كنتُ أرى منه حينَ أشتكي، إنَّما يدخلُ رسولُ الله ﷺ فيسلمُ، ثمَّ

(١) «الجزع»: هو خرز يمانٍ، و«ظفار»: قرية في اليمن.

(٢) «لم يهبلنَ» أي لم يثقلنَ باللحم والشحم.

(٣) «التعريس»: النزول آخر الليل في السفر لنوم أو استراحة، «ادَّلَجَ»: أي مشى آخر الليل بعد أن نزل للاستراحة.

يقول: «كيف تيكُم؟»، فذاك يريني، ولا أشعرُ بالسرِّ، حتَّى خرجتُ بعد ما نفهتُ، وخرجتُ معي أمُّ مسطحٍ، قبل المناصع^(١)، فعثرتُ أمَّ مسطحٍ في مرطها، فقالت: تعس مسطحٌ، فقلتُ لها: بشَّ ما قلتِ، أتسيِّبنَ رجلاً قد شهدَ بدرًا، قالت: أي: هتاه، أو لم تسمعي ما قال، قلتُ: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقولِ أهلِ الإفك، فازددتُ مرضاً إلى مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي، فدخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فسلم، ثمَّ قال: «كيف تيكُم؟»، قلتُ: أتأذنُ لي أن أتِيَ أبوي، قالت: وأنا حينئذٍ أريدُ أن أتيقنَ الخبرَ من قبلهما، فأذن لي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أبوي، فقلتُ لأمي: يا أمّته، ما يتحدثُ النَّاسُ؟ فقالت: يا بنية، هوَّي عليك، فوالله لقلما كانتِ امرأةٌ قطُّ وضِيئةً عندَ رجلٍ يحبُّها، ولها ضرائرُ إلا كثرنَ عليها، قالت: قلتُ: سبحانَ الله، وقد تحدَّثَ النَّاسُ بهذا؟! فبكيتُ تلكَ اللَّيلةَ حتَّى أصبحتُ لا يرقأ^(٢) لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثمَّ أصبحتُ أبكي، ودعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، وأسامةَ بنَ زيدٍ حينَ استلبتُ الوحيَ يستشيرهما في فراقِ أهله، قالت: فأما أسامةُ بنُ زيدٍ فأشارَ على رسولِ الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءةِ أهله، وبالذي يعلمُ في نفسه لهم من الودِّ، فقال: يا رسولَ الله هم أهلك، ولا نعلمُ إلا خيراً، وأما عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: لم يضيِّقِ الله عليك، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وإن تسألَ الجاريةَ تصدقك^(٣)، قالت: فدعا رسولُ الله ﷺ بريرةً، فقال: «أي بريرة، هل رأيتِ من شيءٍ يريك من عائشة؟»، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحقِّ، إن رأيتُ عليها أمراً قطُّ أغمصه^(٤) عليها أكثرَ من أنْها جاريةٌ حديثةُ السنِّ، تنامُ عن عجينِ أهلها، فتأتي الدَّاجنُ فتأكله^(٥)، قالت عائشة: وكان رسولُ الله ﷺ سألَ

(١) هي مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها.

(٢) أي: لا ينقطع.

(٣) هذا الذي قاله عليُّ إنما هو بناء على ما رآه من انزعاج النَّبي ﷺ بهذا الأمر وتلقُّفه، فأرادَ راحةَ خاطره، وكان ذلك أهمَّ من غيره.

(٤) أي: أعيبه.

(٥) هي الشاة التي تألف البيت، ولا تخرج للمرعى، ومعنى هذا الكلام: أنَّه ليسَ فيها شيءٌ ممَّا تسألون عنه أصلاً، ولا فيها شيءٌ من غيره إلا نومها عن العجين.

زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري ما علمت أو ما رأيت، قالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني^(١) من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فتنازع عند ذلك الأوس والخزرج فيما بينهم، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت عائشة: وبكى يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدتي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي. قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعني حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت وأنا جارية حديثه السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله، لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة -والله أعلم أني بريئة-؛ لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله أعلم أني بريئة-؛ لا تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت:

(١) أي: من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعله ولا يلومني، وقيل: معناه من ينصرتني، والعذير الناصر.

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي. قَالَتْ: وَأَنَا وَاللَّهِ حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مَبْرُئِي بِرَءَاتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يَتْلَى، وَلِشَأْنِي كَانَ أَحَقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يَتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يَبْرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ^(١)، وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبِرْحَاءِ^(٢) عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجَمَانِ مِنَ الْعَرِقِ^(٣) فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ مِنْ ثَقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا سَرَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأكَ. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ^(٤). فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بِرَءَاتِي^(٥). قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ...﴾ [النور: ١١-٢٠] عَشْرَ آيَاتٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ بِرَءَاتِي^(٦).

في حديث الإفك فوائد عدة في منهجه ﷺ في التعامل مع زوجته منها:

١- أسلوب التروّي:

إن النبي ﷺ اتخذ أسلوب التروّي والتثبت والتحقق من هذه الشائعة قبل إصدار أي حكم فيها، فتروى ﷺ، ولم يتعجل؛ ليكون قراره في ذلك عادلاً.

(١) أي: ما فارقه

(٢) أي: الشدة

(٣) الجمان: الدرّ، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ في الصفاء والحسن.

(٤) أي قومي فاحمديه، وقبلي رأسه، واشكركه لنعمة الله تعالى التي بشرك.

(٥) قالت عائشة ما قالت إلا لآل عليه وعتباً

(٦) رواه البخاري [٢٦٦١]، ومسلم [٢٧٧٠].

فقد مضى على حادثة الإفك شهرٌ كاملٌ، وهو لم يفتح عائشة في الموضوع، بل يترَوَّى، ويسأل، ويتحقَّق من الأمر.

٢- تغيير المعاملة:

ومما يؤخِّدُ من هذه القصة أيضاً: أن النبي ﷺ قد غيَّر أسلوبه في التعامل مع زوجته، فلم يعد يجلسُ عندها، ولم تعد ترى منه اللطف الذي كانت تراه منه قبل ذلك في حالة المرض.

تقول عائشة: «ويربني في وجعي: أني لا أعرفُ من رسولِ الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حينَ أشتكي».

وهذا الموقف من النبي ﷺ يدلُّ على حكمة بليغة في تعامله مع الحادث، فهو لم يعتزلها اعتزالاً كلياً؛ لأن الاعتزال يكون عقوبةً على مخالفةٍ أو معصيةٍ، ولم يثبت في حقها شيءٌ حتى الآن تستحقُّ عليه العقوبة، بل كان يتفقَّد أحوالها، ويسأل عنها بقوله: «كيف تيكُم؟».

وهو بالمقابل لم يعاملها بالطريقة التي كان يعاملها بها قبل شيوخِ حادثِ الإفك؛ ليشعرها بأن شيئاً قد حدث، ويحتاج إلى تحقيقٍ؛ لمعرفة الحقيقة.

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه من الفوائد: ملاطفة الزوجة وحسنُ معاشرتها، والتَّقصيرُ من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النَّقص وإن لم يتحقَّق، وفائدة ذلك أن تتفطنَ لتغيير الحال؛ فتعذر أو تعترف»^(١).

قال النووي: «واعلم أنَّ في حديث الإفك فوائد كثيرة [فذكر منها]: أنَّه إذا عرَّض عارض بأن سمعَ عنها شيئاً، أو نحو ذلك يقلِّل من اللطف ونحوه؛ لتفطن هي أن ذلك لعارضٍ، فتسأل عن سببه فتزيله»^(٢).

(١) فتح الباري [٤٧٩/٢].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١١٧/١٧].

٣- جمع الآراء والاستشارة.

أخذَ رسولُ الله ﷺ يتحرى حول هذه الشائعة، ويسألُ سرّيةً تامّةً عن أخلاقِ عائشة، وسلوكها، وهل رئيَ منها شيءٌ؟ فسألَ أسامةَ بنَ زيدٍ، وعليّ بنَ أبي طالبٍ، وخادمتها بريّة، وزينبَ.

واختيارُ الرسول ﷺ هؤلاء الأربعة؛ لاستشارتهم لم يكن عن عبث: فعليّ بنَ أبي طالب قريبٌ له ومن داخل الأسرة، وأسامةُ من المقرّبين من الأسرة النبوية المحافظين على السّرية التامّة. قال ابن حجر: «والعلّة في اختصاص عليّ وأسامة بالمشاورة أنّ عليّاً كانَ عنده كالمولّد؛ لأنّه ربّاهُ منْ حال صغره ثمّ لم يفارقه، بل وازداد اتّصاله بتزويج فاطمة فلذلك كانَ مخصوصاً بالمشاورة فيما يتعلّق بأهله لمزيد اطلاع على أحواله أكثر منْ غيره؛ وكانَ أهل مشورته فيما يتعلّق بالأُمور العامّة أكابر الصّحابة كأبي بكر وعمر.

وأما أسامة فهو كعليّ في طول الملازمة، ومزيد الاختصاص والمحبة؛ ولذلك كانوا يطلقون عليه أنّه حبّ رسول الله ﷺ؛ وخصّه دونَ أبيه وأمه؛ لكونه كانَ شابّاً كعليّ، وإن كانَ عليّ أسنّ منه. وذلك أنّ للشّاب منْ صفاء الدّهن ما ليس لغيره، ولأنّه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسنّ، لأنّ المسنّ غالباً يحسبُ العقاب، فربّما أخفى بعض ما يظهر له؛ رعايةً للقائل تارةً والمسئول عنه أخرى»^(١).

واختار من النساء اثنتين:

الأولى: من داخل الأسرة النبوية، وهي زوجته ابنة عمّته.

والثانية: الجارية؛ لكونها قريبةً منها، ومطلّعة على أمورها وشؤونها.

ولا شكّ أن هذا الاختيار يدلُّ على حكمة النبي ﷺ، وكمال فطنته في تعامله مع القضايا التي تمسُّ الأعراس.

(١) فتح الباري [٨/ ٤٦٩].

وبعد أن أجرى النبي ﷺ هذا التحقيق السري الهادئ أشار إلى النتائج، فصعد على المنبر، وبيّن أن الذي يقف وراء هذه الفتنة هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ، فقال: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

وفي هذا دفاعه عن زوجته أمام الناس على المنبر: «فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً».

ومع توصل النبي ﷺ إلى براءة عائشة إلا أنه بقي ينتظر نزول الوحي؛ ليكون قراره قاطعاً. وفي تأخر نزول الوحي حكم بالغة من أهمها أن الله أراد أن يعلم الأمة من خلال هذه الحادثة كيف يتعاملون مع مثل هذه الحوادث الحساسة حفاظاً على الأسرة المسلمة من التصدع.

٤ - ثم بعد ذلك استخدم طريقة المواجهة مع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

فصارحها في الموضوع بكل شفافية ووضوح؛ من أجل الوصول إلى حل لهذه المشكلة، ولتنكشف الحقائق، وتطيب النفوس.

فقال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأسلوب النصيح والوعظ: «يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة؛ فسيرتك الله، وإن كنت ألممت بذنب؛ فاستغفري الله، وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه».

٥ - وبعد ظهور براءتها احتمل ما قد يصدر منها على سبيل الغضب:

وذلك في قولها: «فقلت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ. فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله».

قال النووي: «براءة عائشة رضي الله عنها من الإفك هي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسان - والعياذ بالله - صار كافراً مرتداً بإجماع»^(١).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [١١٧/١٧].

ومن الحوادث والمشكلات التي تعرّض لها بيت النبوة ما حصل من نساءه من المطالبة

بزيادة النفقة:

وهذه القصة تبيّن كيف كان تعامل النبي ﷺ مع المشكلات الاقتصادية التي تنشأ داخل الأسرة بسبب المطالبة بزيادة النفقات.

يروى هذه القصة جابر بن عبد الله فيقول: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحدٍ منهم.

فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فأذن له.

فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً.

فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ.

فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنتَ خارجة، سألتني النفقة، فقمْتُ إليها، فوجأت عنقها.

فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة».

فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده.

فنهأهما رسول الله ﷺ.

فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده.

ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك».

قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية.

قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت.

قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يعثني معنّاً ولا متعناً، ولكن بعثني معلماً ميسراً».

ثم خير نساءه فقلن مثل ما قالت عائشة^(١).

في هذه القصة بيان كيفية تعامل النبي ﷺ مع مطالبة زوجاته بزيادة النفقة، في بداية الأمر بقي رسول الله ساكناً صامتاً، لم يجبهن بشيء، كما قال جابر: «فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكناً».

هذا هو الأسلوب الأول الذي اتخذه النبي ﷺ لحل هذه المشكلة، وهو أسلوب التغاضي عن الأمر؛ وذلك لأن كثيراً من الخلافات الزوجية لا تحل بأسلوب الخصومة، ولا ينفع معها الجدل، بل قد يزيداها الجدل تعقيداً.

والأمر الثاني الذي اتخذه النبي ﷺ لحل هذه المشكلة هو: التخيير، فخير نساءه بين البقاء معه على الحال التي هو عليها أو مفارقتها، وهذا مما جاءت به الشريعة الإسلامية أن يخير الزوج زوجته بين البقاء عنده، أو مفارقتها إذا طالبت به أمور لا يستطيع الوفاء بها.

إن أسلوب التخيير الذي استعمله النبي ﷺ في معالجة تلك المشكلة المادية هو صورة مشرقة من صور مبدأ الشورى في الحياة الزوجية.

وأمر رسول الله ﷺ أزواجه بالتروي، وعدم الاستعجال باتخاذ القرار:

«إني ذاكركم لأمرأ فلا عليكم أن لا تستعجلي».

(١) رواه مسلم [١٤٧٨].

وهذا بخلاف ما عليه كثير من الأزواج من التهديد بالطلاق باستمرارٍ، فعند حدوث أي خطأ من الزوجة يقول: سأطلقك، سأطلقك، إذا قصرت معه في شيء قال: سأطلقك، إذا خرجت من البيت فأنت طالق، إذا رفعت الساعة فأنت طالق، إذا كلمت فلانة فأنت طالق. ومما يؤخذ من هذه القصة أن النبي ﷺ لم يلجأ إلى ضرب زوجاته أو إهانتهم، وإنما اتخذ معهن أسلوباً كريماً.

ولما قام أبو بكر وعمر؛ ليضربا عائشة وحفصة نهاماً عن ذلك؛ لأن المشاكل لا تحل دائماً بالضرب، بل بالحوار والإقناع في الغالب.

ومن الأمور التي ينبغي أن تراعيها الزوجة:

أنها تنتقل أحياناً من بيت غنى، وتدليل، وترفيه إلى بيت زوجها الذي قد يكون قليل ذات اليد، قد يكون طالباً، أو موظفاً مستوراً، فيجب على الزوجة أن تراعي الفارق، وهذا قدر الله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَارًا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فكون البنت كانت عند أهلها مدللة، وأن أباه كان يشتري لها كل يوم، وأنه وأنه، لا يعني أنها الآن إذا انتقلت إلى بيت زوجها ترهقه شططاً.

والمطالبة بزيادة النفقات، والإكثار من الطلبات أمرٌ محرّجٌ جداً للزوج لاسيما إذا كان فقيراً، وقد تدفع الزوج الذي عنده ضعف في الإيمان إلى الطرق المحرّمة في الكسب؛ فيضرب نفسه وأسرته عن طريق السعي وراء الكسب المحرم كالرشوة، والسرقة، وغير ذلك، فيعرض نفسه للفصل من العمل، أو السجن، فيخسر دينه ودنياه.

وفي المقابل ينبغي على الزوج أن يقدّر أن المرأة كانت في بيت نعمة، فكل ما يستطيع أن يأتي به إليها من الأشياء المباحة شرعاً؛ فليوفّر لها.

ومن المشاكل التي حصلت في بيت النبوة ما حصل من الاتفاق بين بعض زوجاته؛ للاحتيال عليه:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحِبُّ الْحُلُوءَ وَالْعَسَلَ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ؛ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ.

وكان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عندَ زينب بنتِ جحشٍ، ويمكثُ عندها. فقلتُ: أما والله لنحتالَنَّ لَهُ.

فتواصيتُ أنا وحفصةُ على أَيْتِنَا دَخَلَ عَلَيْهَا؛ فلتقتلَ لَهُ: أَكَلَتْ مَغَايِرَ^(١)، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَايِرَ.

وكان رسول الله ﷺ يشدُّ عَلَيْهِ أَنْ يَوْجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ.

فدخلَ على إحداهما، فقالتَ لَهُ ذَلِكَ، قالَ: «لا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسْلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ، لَا تَخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا».

فنزلتُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ مَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ^(٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ^(٣) إِنْ نُنْوَإَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ^(٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينُ عِيدَاتٍ سَيَجْعَلُ لِي بَيْتًا وَأَنْبَارًا^(٥) [التحریم: ١-٥]^(٦).

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: أُنْهَمَا تَعَاوَنَتَا حَتَّى حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ مَا حَرَّمَ.

(١) وهو صمغ حلو لَهُ رائحة كريهة ينضحهُ شجر يقال لَهُ: العرفط

(٢) رواه البخاري [٦٩٧٢]، ومسلم [١٤٧٤].

وقد اتخذ النبي مع نسائه أسلوب الهجر، فبعدَ حادثة المطالبة بالنفقة وقصة العسل، اعتزل النبي نساءه شهراً.

قال ابن حجر: «يحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سبباً لاعتزالهن. وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ، وسعة صدره وكثرة صفحه، وأن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجهه منهن، صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن».

فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما أنه سأل عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما: ﴿إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]. فقال: وا عجبني لك يا ابن عباسٍ، عائشةٌ وحفصةٌ.

ثم استقبل عمرُ الحديث يسوقه.

فقال: كنّا معشر قريشٍ قوماً نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.

قال: وكان منزلي في بني أمية بن زيدٍ بالعوالي، فتغضبْتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني. [أي: تراددني في القول وتناظرني فيه].

فقلت: ما تنكرُ أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. [فيه: أن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم وترك سيرة قومه].

فانطلقتُ، فدخلتُ على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ.

فقلت: نعم.

فقلت: أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل.

قلت: نعم.

قلتُ: قد خابَ مَنْ فعلَ ذلكَ منكَنَّ وخسرَ، أفْتأْمَنُ إحداكُنَّ أنْ يغضبَ اللهُ عليها لغضبِ رسولِهِ ﷺ، فإذا هِيَ قدْ هلكَتْ؟

لا تراجعِي رسولَ اللهِ ﷺ، ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لكِ، ولا يغرنكِ أنْ كانتْ جارتكِ هِيَ أوسَمَ، وأحبَّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ منكِ، يريدُ عائشةَ.

قالَ: وكانَ لي جارٌّ مِنَ الأنصارِ فكُنَّا نتناوبُ النَّزولَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فينزلُ يوماً، وأنزلُ يوماً، فيأتيني بخبرِ الوحيِ وغيرِهِ، وآتيهِ بمثلِ ذلكَ، وكُنَّا نتحدَّثُ أنْ عَسَّانَ تنعلُ الخيلَ لتغزونا. فنزلَ صاحبي، ثمَّ أتاني عشاءً، فضربَ بابي ثمَّ ناداني، فخرجتُ إليه فقالَ: حدثَ امرٌ عظيمٌ.

قلتُ: ماذا أْجاءتْ عَسَّانُ.

قالَ: لا، بل أعظمُ مِنْ ذلكَ وأطولُ، طَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ نساءَهُ.

فقلتُ: قدْ خابتُ حفصةُ وخسرتُ، قدْ كنتُ أظُنُّ هذا كائناً.

حتَّى إذا صليتُ الصُّبحَ شددتُ عليَّ ثيابي، ثمَّ نزلتُ، فدخلتُ على حفصةَ وهي تبكي.

فقلتُ: أطلِّقِكُنَّ رسولُ اللهِ ﷺ.

فقالَتْ: لا أدري ها هوَ ذا معتزُّ في هذهِ المشربةِ.

فأتيتُ غلاماً لَهُ أسودَ فقلتُ: استأذنْ لعمري.

فدخلَ ثمَّ خرجَ إليَّ فقالَ: قدْ ذكركَ لَهُ فصمتَ.

فانطلقتُ حتَّى انتهيتُ إلى المنبرِ، فجلستُ، فإذا عندهُ رهطٌ جلوسٌ يبكي بعضهم،

فجلستُ قليلاً ثمَّ غلبني ما أجْدُ.

ثمَّ أتيتُ الغلامَ فقلتُ: استأذنْ لعمري.

فدخل، ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرتُكَ له، فصمتَ.

فوليتُ مدبراً، فإذا الغلامُ يدعوني، فقال: ادخل؛ فقد أذن لك.

فدخلتُ، فسلمتُ على رسولِ الله ﷺ، فإذا هو متكئٌ على رملٍ حصيرٍ^(١)، قد أثر في جنبه، متكئٌ على وسادةٍ من آدمٍ حشوها ليفٌ.

فسلمتُ عليه، ثم قلتُ وأنا قائمٌ: طَلَّقتَ نساءَكَ؟

فرفعَ رأسه إليّ وقال: (لا).

فقلتُ: الله أكبرُ.

ثم قلتُ وأنا قائمٌ أستاذنُسُ^(٢): لو رأيتنا يا رسولَ الله وكنا معشرَ قريشٍ قوماً نغلبُ النساءَ، فلما قدمنا المدينةَ وجدنا قوماً تغلبهم نساؤُهُم، فطفقَ نساؤُنا يتعلمنَ من نسائِهِم، فتغضبتُ على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني.

فقالتُ: ما تنكرُ أن أراجعَكَ فوالله إن أزواجَ النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجرُهُ إحداهنَّ اليومَ إلى الليلِ.

فقلتُ: قد خابَ من فعل ذلكَ منهنَّ وخسرَ، أفتأمنُ إحداهنَّ أن يغضبَ اللهَ عليها لغضبِ رسولِهِ ﷺ؛ فإذا هي قد هلكَتْ؟

فتبسّمَ رسولُ الله ﷺ.

ثم قلتُ: لو رأيتني، ودخلتُ على حفصةَ، فقلتُ: لا يغرّتكِ أن كانتِ جارتكِ هي أَوْضاً منك، وأحبَّ إلى النبي ﷺ منك.

فتبسّمَ أخرى.

(١) أي: حصير منسوج بالسعف.

(٢) أي: أقول قولاً أستكشف به: هل ينبسط لي أم لا؟

فجلستُ حينَ رأيتهُ تبسّمَ.

فقلتُ: أستاذُنا يا رسولَ الله.

قالَ: (نعم).

فلَمْ أزلُ أحدثُهُ حتّى تحسّرَ الغضبُ عن وجهه، وحتّى كثرَ فضحكُ، وكانَ منَ أحسنِ الناسِ ثغراً ﷺ.

فجلستُ، فرفعتُ رأسيَ في البيتِ، فوالله ما رأيْتُ فيه شيئاً يرُدُّ البصرَ إلّا أهباً^(١) ثلاثةً.

فقلتُ: ادعُ اللهَ يا رسولَ الله أنْ يوسّعَ على أمتِكَ فقد وسّعَ على فارسَ والرومِ، وهم لا يعبدونَ اللهَ.

فاستوى جالساً ثمَّ قالَ: (أفي شكٍّ أنتَ يا ابنَ الخطّابِ؟ أولئك قومٌ عجّلَتْ لهم طيِّباتهم في الحياةِ الدُّنيا).

فقلتُ: استغفرْ لي يا رسولَ الله.

وكانَ أقسمَ أنْ لا يدخلَ عليهنَّ شهراً منَ شدّةِ موجدتهِ عليهنَّ حتّى عاتبهُ اللهَ عزَّ وجلَّ^(٢).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: ألى رسولُ الله ﷺ من نساءهِ، فأقامَ في مشربةٍ تسعاً وعشرينَ ليلةً، ثمَّ نزلَ.

فقالوا: يا رسولَ الله آليتَ شهراً.

فقالَ: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعاً وَعَشْرِينَ»^(٣).

(١) جمع إهاب، وهو الجلد قبل الدِّباغ

(٢) رواه البخاري [٢٤٦٨]، ومسلم [١٤٧٩].

(٣) رواه البخاري [١٩١١].

«آلى» قال النووي: «ومعناه: حلف لا يدخل عليهن شهراً، وليس هو من الإيلاء المعروف في اصطلاح الفقهاء، ولا له حكمه.

وأصل الإيلاء في اللغة: الحلف على الشيء، وصار في عرف الفقهاء مختصاً بالحلف على الامتناع من وطء الزوجة»^(١).

ومن الدروس المستفادة من قصة اعتزال النبي ﷺ نساءه:

أن أسلوب الهجر من أساليب معالجة المشكلات الزوجية.

فقد استعمل رسول الله ﷺ هذا الأسلوب حيث أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن.

والهجر عقوبة نفسية بالغة، وهو من أبلغ العقوبات للزوجة، والهجر إما أن يكون في المضجع وهو أشد، وإما أن يكون خارج البيت، ومن رحمة النبي ﷺ بأزواجه أنه هجرهن خارج البيت.

من فوائد الحديث:

فيه: دخول الآباء على البنات ولو كان بغير إذن الزوج، والتنقيب عن أحوالهن لا سيما ما يتعلق بالمتزوجات.

وفيه: تأديب الرجل ابنته وقرابته بالقول؛ لأجل إصلاحها لزوجها.

وفيه: الصبر على الزوجات، والإغضاء عن خطاياهن، والصنفح عما يقع منهن من زلل في حق المرء دون ما يكون من حق الله تعالى.

وفيه: أن شدة الوطأة على النساء مذمومة؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم، وترك سيرة قومه.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [٨٨/١٠].

وفيه: مشروعية الاستئذان على الإنسان وإن كان وحده؛ لاحتمال أن يكون على حالة يكره الاطلاع عليها.

وفيه: أن المرء إذا رأى صاحبه مهموماً استحبَّ له أن يحدثه بما يزيل همّه، ويطيب نفسه، لقول عمر: «لأقولنَّ شيئاً يضحكُ النبيُّ ﷺ»^(١).



(١) فتح الباري [٩/ ٢٩١].

تعامل النبي ﷺ مع أبنائه وبناته

كان النبي ﷺ أبرَّ الناس بأهله، وأشدَّهم صلةً بذويه، ويتجلَّى ذلك في تعامله ﷺ مع أولاده؛ وما يبذله لهم من الرعاية، وحسن الإعالة.

وقد رزق ﷺ عدداً من البنين والبنات:

فمن البنين ثلاثة؛ وهم: القاسم، وعبدُ الله، وإبراهيمُ.
وأما الطيب، والطاهر؛ فالصحيح أنهما لقبان لعبد الله.
وهؤلاء البنون وافتهم المنيَّة وهم في سنِّ الطفولة.
فالقاسم: مات بمكة؛ وهو ابنُ سنتين وأشهر، وبه كان يكنى، وأمّه خديجة بنتُ خويلد.
وعبدُ الله: ولدَ بعد النبوة، ومات بمكة، وهو من خديجة.
وأما إبراهيم: فأُمُّه ماريةُ القبطية، ولدَ بالمدينة في ذي الحجة، سنة ثمانٍ، ومات بها سنة عشرٍ، وهو ابنُ سبعة عشر شهراً؛ أو ثمانية عشر شهراً.
وأما البنات؛ فرزقه الله أربع بناتٍ؛ هن: زينبُ، ورقيةُ، وأمُّ كلثوم، وفاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وهؤلاء البنات من أمٍّ واحدةٍ، وهي خديجةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
أما زينبُ: فهي أوَّل من ولد من البنات، تزوجها أبو العاصِ بنُ الربيع.

وأما رقية: فهي البنتُ الثانيةُ من بناتِ النبي ﷺ، وقد كانَ تزوّجَ بها قبلَ الإسلامِ عتبةُ بنُ أبي لهبٍ، وطلّقَها ولم يكنْ دخلَ بها، ثم تزوّجها عثمانُ بنُ عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهاجرتْ معه إلى أرضِ الحبشةِ، المهجرتينِ جميعاً.

مرضتْ ورسولُ الله يتجهّزُ إلى بدرٍ، فخلفَ عليها رسولُ الله عثمانُ بنُ عفانَ، فتوفيتْ ورسولُ الله ببدرٍ في شهرِ رمضانَ.

وأما أمُّ كلثوم: فهي البنتُ الثالثةُ من بناتِ النبي ﷺ، تزوّجها عثمانُ بنُ عفانَ بعدَ أختها رقية، وماتتْ عندهُ.

وأما فاطمة: فهي آخرُ بناتِ النبي ﷺ، وأحبَّهنَّ إليه، ولدتْ سنةَ إحدى وأربعينَ من مولده، وماتتْ بعده بستةِ أشهرٍ، وقد تزوّجها عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فهؤلاء أولادُ النبي ﷺ.

كان ﷺ يختار لهم الأسماء الحسنة:

الناظر في أسماء أولادِ النبي ﷺ، يجدها كلها أسماءً حسنةً جميلة، وقد كان النبي ﷺ يحثُّ على الأسماء الحسنة، ويغيّرُ الأسماء القبيحة.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يقال حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأن يزوجه إذا بلغ وأن يحججه وأن يحسن أدبه»^(١).

وسمّى ابنه إبراهيم يوم ولادته:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ولد لي الليلة غلامٌ، فسمّيته باسمِ أبي إبراهيم...»^(٢).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال [١٧١].

(٢) رواه مسلم [٢٣١٥].

هديه ﷺ في التعامل مع أبنائه، وبناته:

لقد رزق النبي ﷺ بأربع بناتٍ؛ وهن اللاتي عشنَ من بين أولاده، أما الذكورُ فقد توفوا وهم صغارٌ.

وكان ﷺ يحبهنَّ، ويكرمهنَّ، ويحتفي بهنَّ، وفي هذا درسٌ لمن رزق البناتِ وإن كثر عددهنَّ، عليه أن يظهرَ الفرحَ، والسرورَ، ويشكرَ الله سبحانه وتعالى على ما وهبه من الذرية، وأن يعزم على حسنِ تربيتهنَّ، وتأديبهنَّ.

وقد قال ﷺ: «مَنِ ابْتَلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بَشِيَّةً، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كَنَ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(١).

ومعنى الابتلاء هنا: الاختبار؛ أي: من اختبرَ بشيءٍ من البناتِ؛ لينظرَ ما يفعلُ، أيحسُنُ إليهنَّ، أو يسيءُ؟ فمن أحسنَ إليهنَّ؛ كنَ له سِتْرًا مِنَ النَّارِ يومَ القيامة، يعني أن الله يحجبه عن النار بإحسانه إلى البناتِ؛ لأن البنتَ ضعيفةٌ، تحتاجُ إلى مزيدِ رعايةٍ وعنايةٍ.

ومن واجبِ الأبِ أن يزوّجَ ابنته الكفاء من الرجال؛ صاحبَ الدين والخلق.

وقد زوّج النبي ﷺ جميع بناته من خيرة الرجال.

فزوَّج زينبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أبي العاصِ بن الربيعِ القرشيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ابنُ خالتها هالة بنت خويلدٍ؛ وأبو العاصِ كانَ من رجالِ مكة المعدودين؛ مالا، وأمانةً، وتجارةً.

وكان قد فرّق الإسلامُ بينَ زينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، وبينَ أبي العاصِ بنِ الربيعِ؛ إلا أن رسولَ الله ﷺ كانَ لا يقدرُ على التفريقِ بينهما، فأقامتُ معه على إسلامها، وهو على شركه، حتى هاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، وهي مقيمةٌ معه بمكة، لا يستطيعُ رسولُ الله ﷺ أن يستنقذها.

(١) رواه البخاري [٥٩٩٥]، ومسلم [٢٦٢٩] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فلما سارت قريش إلى بدرٍ سارَ معهم أبو العاص بن الربيع، فأصيبَ في الأسارى.
 عن عائشة قالت: لما بعثَ أهلُ مكّة في فداءِ أسراهم؛ بعثتْ زينبُ في فداءِ أبي العاصِمِ،
 وبعثتْ فيه بقلادةٍ لها كانت عندَ خديجة، أدخلتها بها على أبي العاصِ.
 فلما رآها رسولُ الله ﷺ؛ رَقَّ لها رقّةً شديدةً.
 وقال: «إن رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها».
 فقالوا: نعم.

وكان رسولُ الله ﷺ أخذَ عليه أن يخلّيَ سبيلَ زينبَ إليه، وبعثَ رسولُ الله ﷺ زيدَ بنَ
 حارثة، ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا بيطنٍ يأججٍ حتّى تمرَّ بكما زينبُ، فتصحباهما حتّى
 تأتيا بها»^(١).

وقد أثنى النبي ﷺ على أبي العاص بن الربيع في مصاهرته خيراً، وقال: «حدّثني فصدقني؛
 ووعدني فوفى لي»^(٢).

وكان قد وعدَ النبي ﷺ أن يرجعَ إلى مكّة بعد وقعة بدرٍ، فيبعثَ إليه بزينبَ ابنته، فوفى
 بوعدِهِ، وفارقها مع شدةِ حبّه لها.

وزوّجَ النبي ﷺ رقيةً من عثمانَ بن عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الراشد، وكان من أبرزِ أخلاقه
 وأشدّها تمكّناً من نفسه خلقُ الحياء، الذي تأصّل في كيانه، وكان النبي ﷺ يحبه كثيراً، ويوقّره،
 وقد بشّره بالجنة.

فلما توفيت رقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ زوّجَهُ النبي ﷺ بأختها أمّ كلثوم، وتوفيت عنده.

وزوّجَ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنِ عمه، وكان أوّل من آمن

(١) رواه أبو داود [٢٦٩٢]، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٢٦٩٢].

(٢) رواه البخاري [٣١١٠]، ومسلم [٢٤٤٩] عن المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

برسول الله ﷺ من الصبيان، وكان قد تربى في حجره ﷺ قبل الإسلام، ولم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، وكان النبي ﷺ يحبه، ويقربه، وقد بشره بالجنة.

وكان النبي ﷺ يشاور بناته في زواجهن:

فعن عطاء بن أبي رباح، قال: لما خطب عليٌّ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أتاها رسولُ الله ﷺ، فقال: «إِنَّ عَلِيًّا قَدْ ذَكَرَكَ». فسكتت، فخرج فزوجها^(١).

وفي هذا أنه ﷺ اعتبر سكوتها رضاً بالزوج؛ وقد قال ﷺ: «لا تنكحُ البكرُ حتى تستأذن». قالوا: يا رسولَ الله، وكيف إذن؟ قال: «أَنْ تَسْكُتَ»^(٢).

فالبنتُ أمانةٌ في بيتِ والدها، ولا يحلُّ لوليِّها أن يعقدَ لها على رجلٍ لا تريده.

وكان ﷺ لا يغالي في مهر بناته:

وقد زوج النبي ﷺ بناته على اليسير من الصداق.

فعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَلِيًّا قَالَ: تزوجتُ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فقلتُ: يا رسولَ الله ابنِ بي. قال: «أعطاها شيئاً».

قلتُ: ما عندي من شيءٍ.

قال: «فأينَ درعكَ الحطميَّةُ؟».

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات [٢٠ / ٨]، وهو مرسل صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري [٥١٣٦] ومسلم [١٤١٩] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلتُ: هيَ عندي.

قالَ: «فأعطها إِيَّاهُ»^(١).

فهذا هو صدأُ بنتِ رسولِ الله ﷺ، وأصغرُ بناته، سيدة نساء أهل الجنة: درعُ حطمية.
(الحطمية) نسبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم حطمة بن محارب كانوا يعملون الدروع،
وقيل: هي التي تحطم السيف أي تكسرها^(٢).

وما يفعله بعضُ الناسِ في زماننا من التغالي في المهور، ليس من هدي رسول الله ﷺ، فلو
كانت المغالاة بمهور النساءِ مكرمةً؛ لسبق إليها رسولُ الله ﷺ.

جهازه لابنته:

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا زَوَّجَهُ فَاطِمَةَ؛ بَعَثَ مَعَهَا بِخْمِيلَةً،
ووسادةً مِنْ أَدَمٍ^(٣) حَشَوْهَا لَيْفٌ، وَرَحِيْنٌ، وَسَقَاءٌ، وَجَرَّتَيْنِ^(٤).
الخميصة: القطيفة، وهي كل ثوب له خمل من أي شيء كان^(٥).

من فوائد الحديث:

استحبابُ التيسير في أمور الزواج؛ وأن يكونَ قدرَ الاستطاعة؛ فلا يتكلفُ الزوجُ أو
الزوجةُ فوق طاقتها في تجهيزِ بيتِ الزوجية.

وخصَّصَ لهما الرسولُ ﷺ حجرةً خلفَ بيتِ أم المؤمنين عائشةَ من جهة الشمالِ مقابل

(١) رواه أبو داود [٢١٢٥]، والنسائي [٣٣٧٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٨٤٩].

(٢) النهاية [١/ ٩٩٤].

(٣) أي: جلد.

(٤) رواه أحمد [٨٢١]، وصححه الألباني في صحيح الترغيب [٣٣٠١].

(٥) النهاية [٢/ ١٥٣].

باب جبريل، وكان فيه خوخةٌ على بيتِ النبي عليه الصلاة والسلام يطلُّ منها عليهما.

وفيه أيضاً: أنه ينبغي لوالد العروس أن يساهم في تكاليف الزواج، ولا يقول: كل شيء على الزوج، والزوج اليوم غالباً شاب حديث التخرج، أو حديث التوظف، وراتبه بسيط، فيحتاج إلى المساعدة، والأب غالباً ما يكون أقدم في الوظيفة أو يكون تاجراً ميسوراً، ونحو ذلك، فينبغي أن يساعد زوج ابنته، ولو في الأثاث وأدوات المطبخ كما في هذا الحديث.

وكذلك وليمةُ زواج ابنته ﷺ كانت يسيرة:

عن بريدة قال: لما خطبَ عليُّ فاطمةَ رضي الله تعالى عنهما، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّهُ لا بدَّ للعرسِ من وليمةٍ».

فقال سعدٌ: عليٌّ كبشٌ، وقال فلانٌ: عليٌّ كذا وكذا من ذرةٍ^(١).

والوليمةُ هي الطعامُ المتَّخذُ للعرسِ، مشتقةٌ من الولم، وهو الجمعُ؛ لأن الزوجين يجتمعان^(٢). وهي مستحبةٌ عند جمهور العلماء.

والأفضلُ فعلُ وليمةِ النكاحِ بعد الدخولِ اقتداءً بالنبي ﷺ، ولا حرجَ من فعلها قبل الدخولِ، أو عند العقدِ، أو بعده.

والأمر في هذا واسعٌ، ومراعاة الإنسان ما جرى عليه عملُ أهل بلده أولى؛ لعدم وجود نصٍّ شرعيٍّ يدلُّ على إيجابٍ أو استحبابٍ فعلها في وقت محدّد.

دعاؤه لفاطمة وعلي عند الزواج:

فلما كانت ليلةُ البناءِ، قال النبي ﷺ لعلي: «لا تحدث شيئاً حتى تلقاني».

(١) رواه أحمد [٢٢٥٢٦]، وقال ابن حجر في الفتح: «وسنده لا بأس به»، وحسنه الألباني في آداب الزفاف [١/٧٣].

(٢) ينظر: لسان العرب [١٢/٦٤٣].

فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ فيه، ثم أفرغهُ على عليٍّ؛ فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِمَا، وَبَارِكْ لهما في بنائهما»^(١).

وفي الحديث: استحبابُ الدعاءِ بالبركة للزوجين، وقد دعا النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف؛ فقال: «بارك الله لك»^(٢).

رعاية النبي ﷺ لبناته بعد الزواج:

ولم تتوقف رعاية النبي ﷺ لبناته عند زواجهن؛ بل استمرت حتى بعد الزواج، فلم يكن يشغله ﷺ عن بناته رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ شاغلٌ؛ بل كان يفكرُ بحالهنَّ وهو في أصعبِ الظروف، فعندما أراد النبي ﷺ الخروجَ لبدرٍ؛ لملاقاة قريش، وصناديدها؛ كانت رقية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مريضةً.

فأمر النبي ﷺ زوجها عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يتخلفَ عن غزوة بدرٍ، ويبقى في المدينة؛ ليمرضها، وضربَ له بسهمه في مغنم بدرٍ، وأجره عند الله يوم القيامة.

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال لمن غمزَ في عثمان؛ لتغيبه عن غزوة بدرٍ: «أما تغيبه عن بدرٍ؛ فإنه كان تحتَه بنتُ رسولِ الله ﷺ، وكانت مريضةً، فقال له النبي ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَسَهْمَهُ»^(٣).

وكان ﷺ لا يتدخل في الخلافات اليسيرة التي قد تحدث بينهن وبين أزواجهن:

عن سهل بن سعدٍ قال: جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ فاطمة؛ فلم يجدَ عليًّا في البيتِ. فقال: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ؟».

(١) رواه الطبراني في الكبير [١١٥٣] وحسنه الألباني في آداب الزفاف [١٠١ / ١].

(٢) رواه البخاري [٥١٥٥]، ومسلم [١٤٢٧] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري [٣١٣٠]

قالت: كان بيني وبينه شيء؛ فغاضبني، فخرج فلم يقل عندي^(١).

فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو؟».

فجاء فقال: يا رسول الله! هو في المسجد راقداً.

فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه ترابٌ.

فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: «قم أبا تراب، قم أبا تراب!»^(٢).

قال ابن حجر: «وفي الحديث من الفوائد... مداراة الصهر، وتسكينه من غضبه»^(٣).

فمن الملاحظ: أن النبي ﷺ لم يستفسر من فاطمة عن الخلاف الذي حصل بينها وبين زوجها، ولم يطلب منها أن تسرد له سبب المغاضبة التي حصلت بينهما، بل تغاضى عن ذلك، وذهب إلى عليّ يسترضيه.

فكثيراً ما يكون تدخل الأهل في المشاكل التي تحدث بين الزوجين سبباً لزيادتها وتفاقمها. وفيه: كرم خلق النبي ﷺ؛ لأنه توجه نحو عليٍّ؛ ليرضاه، ومسح التراب عن ظهره؛ ليسطه، وداعبه بالكنية المذكورة؛ ليؤنسه، ولم يعاتبه على مغاضبته لابنته مع رفيع منزلتها عنده، ولم يراجع عليّاً في هذا الأمر، وهذا من حكمته ﷺ.

فيؤخذ منه: استحباب الرفق بالأصهار، وتسكين غضبهم، وترك معاتبتهم إبقاءً لمودتهم.

قال ابن بطال: «وفيه: أن أهل الفضل قد يقع بين الكبير منهم وبين زوجته ما طبع عليه البشر من الغضب، وقد يدعوه ذلك إلى الخروج من بيته ولا يعاب عليه.

(١) من القيلولة وهو نوم نصف النهار.

(٢) رواه البخاري [٤٤١]، ومسلم [٢٤٠٩].

(٣) فتح الباري [٥٣٦/١].

ويحتمل أن يكون سببُ خروج عليٍّ خشيةً أن يبدو منه في حالة الغضبِ ما لا يليقُ بجناب فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فحسم مادةَ الكلام بذلك إلى أن تسكنَ فورةُ الغضبِ من كل منهما^(١).

يستفاد كذلك من هذا الخبر أن الزوج يحسنُ منه تركَ البيت إذا أحسَّ أن حدةَ النقاش قد تؤدي إلى المزيد من المشاكل الأسرية.

كما أن مغادرة البيت في هذه الحالة قد يحدث معه شيءٌ من مراجعة النفس، واكتشاف الأخطاء، وذلك ما قد يتعذرُ في وجود الطرف الآخر.

ولم تخرج فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من بيت الزوجية، بل بقيت في بيتها، وهذا مما يهون من المشكلة وأثرها، بخلاف ما لو خرجت إلى بيت أبيها.

والواجبُ على الأهل أن يكونَ لهم دور فعّال في التوجيه، والنصيحة، وتصبيرِ الزوجة، وتوصيتها بحسنِ معاملةِ زوجها.

وإذا زارته إحدى بناته؛ أحسنَ استقبالها، واحتفى بقدموها:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: ما رأيتُ أحداً أشبهَ سمتاً^(٢)، ودلاً^(٣)، وهدياً برسولِ الله في قيامها، وقعودها من فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ.

قالت: وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ؛ قامَ إليها، فقبلها، وأجلسها في مجلسه.

وكان النبي ﷺ إذا دخلَ عليها؛ قامت من مجلسها، فقبلته، وأجلسته في مجلسها^(٤).

(١) فتح الباري [٥٨٨/١٠]

(٢) أي: في حسن هيئته ومنظره في الدين وليس من الحسن والجمال. النهاية [٩٨٨/٢]

(٣) الدل: الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة واستقامة المنظر والهيئة. النهاية [٣١٥/٢]

(٤) رواه أبو داود [٥٢١٧] والترمذي [٣٨٧٢]، وصححه الألباني.

وفي رواية أبي داود: «فأخذ بيدها، وقبلها».

«فأخذ بيدها»: أي تكريماً لها.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مرحباً بابنتي»، ثم أجلسها، عن يمينه، أو عن شماله.. الحديث (١).

وفي هذا الحديث: مكانة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من النبي ﷺ؛ وشدة حبه لها.

وفيه: احتفاؤه ﷺ بها إذا لقيها.

فأين هذه المشاعر الشفافة من أولئك القساة، الذين يظنون أن العبوس، والتجهّم من علامات الرجولة والقوامة مع الأبناء، ومع البنات خاصة؟!

وكان يربّي بناته على التقلّل من الدنيا، ويحثّهنّ على الصدقة:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوجد على بابها سترأ، فلم يدخل.

وقلما كان يدخل، إلا بدأ بها.

فجاء عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرآها مهمّمةً، فقال: ما لك؟

قالت: جاء النبي ﷺ إليّ، فلم يدخل.

فأتاه عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله إن فاطمة اشتدّ عليها أنك جئتها، فلم تدخل عليها.

قال: «ما أنا والدنيا، وما أنا والرقم، إني رأيت على بابها سترأ موشياً» (٢).

(١) رواه البخاري [٣٦٢٤]، ومسلم [٢٤٥٠].

(٢) وهو المخطط بألوان شتى، والرقم: النّقش والوشى.

فذهب إلى فاطمة فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت: قل لرسول الله ﷺ: ليأمرني فيه بما شاء.

فقال: «قل لها، ف لترسل به إلى بني فلان، أهل بيت بهم حاجة»^(١).

قال المهلب وغيره: «كره النبي ﷺ لابنته ما كره لنفسه من تعجيل الطيبات في الدنيا لا أن ستر الباب حرام. وهو نظير قوله لها لما سألتها خادماً: «ألا أدلك على خير من ذلك؟» فعلمها الذكر عند النوم»^(٢).

ويرشدهن إلى الأفضل في أمور معاشهن، ومعادهن:

عن علي رضي الله عنه، أن فاطمة رضي الله عنها، شكت ما تلقى في يدها من الرحي، فأتى النبي ﷺ تسأله خادماً (أي جارية تخدمها).

فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة.

فلما جاء أخبرته.

قال: فجاءنا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبن لنقوم.

فقال: «على مكانكما»، فجلس بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري^(٣).

فقال: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما، أو أخذتما مضاجعكما، فكبرا أربعاً وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمداً ثلاثاً وثلاثين، فهذا خير لكما من خادم»^(٤).

وسبب عدم إعطاء النبي ﷺ خادماً لهما؛ أنه اختار أن يوسع على فقراء الصفة بما قدم عليه؛

(١) رواه البخاري [٢٦١٣] وأبو داود [٤١٤٩].

(٢) فتح الباري [٢٢٩/٥].

(٣) يحمل على أنه فعل ذلك مبالغة منه في التأنيس.

(٤) رواه البخاري [٣٧٠٥] ومسلم [٢٧٢٧].

ورأى لأهله الصبر، بما لهم في ذلك من مزيد الثواب.

وفيه: بيان إظهار غاية التعطف والشفقة على البنت والصهر، ونهاية الاتحاد برفع الحشمة والحجاب، حيث لم يزعجهما عن مكانهما؛ فتركهما على حالة اضطجاعهما، وبالغ حتى أدخل رجله بينهما، ومكث بينهما حتى علمهما ما هو الأولى بحالهما من الذكر، عوضاً عما طلباه من الخادم.

فهو من باب تلقي المخاطب بغير ما يطلب، إيداناً بأن الأهم من المطلوب هو التزوّد للمعاد، والصبر على مشاق الدنيا، والتجافي عن دار الغرور^(١).

وقد علمها رسول الله ﷺ أيضاً دعاء تدعو به عوضاً عن الخادم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: أَتَتْ فَاطِمَةُ النَّبِيَّ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِماً؛ فَقَالَ لَهَا: قُولِي: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْفُرْقَانَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»^(٢).

وكان يدعوها إلى تحمل المسئولية:

فقال ﷺ: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً»^(٣).

ولفظ البخاري: «يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي؛ لا أغني عنك من الله شيئاً».

(١) فتح الباري [١١ / ١٢٤].

(٢) رواه مسلم [٢٧١٣].

(٣) رواه البخاري [٢٧٥٣]، ومسلم [٢٠٤] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومعناه: لا تتكلي على قرابتي؛ فإنِّي لا أقدر على دفع مكروهه يريدُه الله تعالى بك^(١).

ويحثُّها على قيام الليل:

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً. فَقَالَ لَهَا: «أَلَا تَصَلِّيَانِ؟».

قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعْثَنَا.

فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا.

ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مَدْبُرٌ يَضْرِبُ فَخْذَهُ، وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ لَا يَسْنُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]^(٢).

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: «فِيهِ فَضِيلَةُ صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَإِيقَازُ النَّائِمِينَ مِنَ الْأَهْلِ وَالْقِرَابَةِ لَذَلِكَ.

وَلَوْلَا مَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَظَمِ فَضْلِ الصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ؛ مَا كَانَ يَزْعَجُ ابْنَتَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ فِي

وَقْتٍ جَعَلَهُ اللَّهُ لَخْلُقِهِ سَكَنًا؛ لَكِنَّهُ اخْتَارَ لَهَا إِحْرَازَ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ عَلَى الدَّعَةِ وَالسَّكُونِ؛ امْتِثَالًا

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٣] الْآيَةِ^(٣).

«ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مَدْبُرٌ يَضْرِبُ فَخْذَهُ» ضَرْبَ فَخْذِهِ تَعَجُّبًا مِنْ سُرْعَةِ جَوَابِهِ، وَعَدَمِ مَوَافَقَتِهِ

لَهُ عَلَى الْإِعْتِذَارِ بِهَا اعْتِذَرُ بِهِ.

نَعَمْ التَّكْلِيفُ هَاهُنَا نَدْبِيٌّ لَا وَجُوبِيٌّ؛ فَلِذَلِكَ انصَرَفَ عَنْهُمْ وَقَالَ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ وَجُوبِيًّا لَمَا

تَرَكَهُمْ عَلَى حَالِهِمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ^(٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [٨٠ / ٣].

(٢) رواه البخاري [١١٢٧]، ومسلم [٧٧٥].

(٣) فتح الباري [١١ / ٣].

(٤) شرح ابن بطال على صحيح البخاري [١١٥ / ٣]، حاشية السندي على النسائي [٢٠٥ / ٣].

مراعاته ﷺ مشاعر بناته، وغضبه لغضبهن:

عن المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ خَطَبَ بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ؛ وَعِنْدَهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَاطِمَةُ؛ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ.

فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ لَا تَغْضِبُ لِبَنَاتِكَ، وَهَذَا عَلِيٌّ نَاكِحًا ابْنَةَ أَبِي جَهْلٍ.

قَالَ الْمَسُورُ: فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَسَمِعَتْهُ حِينَ تَشْهَدُ؛ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَحَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَّى لِي، وَإِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِنُنِي مَا آذَاهَا، وَإِنَّمَا وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا». فَتَرَكَ عَلِيٌّ الْخُطْبَةَ^(١).

وقد ذكر العلماء جملة من الأسباب التي من أجلها منع النبي ﷺ علي بن أبي طالب من هذا الزواج، وهذه الأسباب ترجع في مجملها إلى أربعة أمور.

الأول: أن في هذا الزواج إيذاءً لفاطمة، وإيذاؤها إيذاءً للنبي ﷺ، وإيذاء النبي ﷺ من كبائر الذنوب، وقد بين ذلك ﷺ بقوله: «وإنما فاطمة بضعة مني، يربيني ما أربها، ويؤذيني ما آذاها». وهذا لا ينطبق على غير بنات النبي ﷺ.

الثاني: خشية الفتنة على فاطمة في دينها، كما جاء في رواية البخاري [٣١١٠]: «وَأَنَا أَخَوْفُ أَنْ تَفْتَنَ فِي دِينِهَا».

فإن الغيرة من الأمور التي جبلت عليها المرأة، فخشي النبي ﷺ أن تدفعها الغيرة لفعل ما لا يليق بحالها ومنزلتها، وهي سيده نساء العالمين.

خاصة وأنها فقدت أمها، ثم أخواتها واحدةً بعد واحدة، فلم يبق لها من تستأنس به ممن يخفف عليها الأمر ممن تفضي إليه بسرّها إذا حصلت لها الغيرة.

(١). رواه البخاري [٣١١٠]، ومسلم [٢٤٤٩] واللفظ له.

قال الحافظ ابن حجر: «وكانت هذه الواقعة بعد فتح مكة، ولم يكن حينئذ تأخر من بنات النبي ﷺ غيرها. وكانت أصيبت بعد أمها بإخوتها فكان إدخال الغيرة عليها مما يزيد حزنها»^(١).

الثالث: استنكار أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في عصمة رجل واحد، كما قال ﷺ: «وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً».

الرابع: تعظيماً لحق فاطمة وبياناً لمكانتها ومنزلتها.

فهذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة هي التي من أجلها منع النبي ﷺ علي بن أبي طالب من هذا الزواج.

وليس في القصة أدنى مستمسك لمن يحاول التشبث بها، للحد من تعدد الزوجات، وقد دفع النبي ﷺ هذا اللبس والوهم بقوله في نفس القصة: «وإني لست أحرّم حلالاً، ولا أحلّ حراماً».

وكان من هديه ﷺ مع بناته؛ الحرص على إدخال السرور عليهن.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أقبلت فاطمة تمشي؛ كأن مشيتها مشي النبي ﷺ.

فقال النبي ﷺ: «مرحباً بابنتي»، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله.

ثم أسر إليها حديثاً، فبكت.

فقلت لها: (لم تبكين).

ثم أسر إليها حديثاً، فضحكت.

فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عما قال.

فقلت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ.

حتى قبض النبي ﷺ فسألتها.

(١) فتح الباري [٧/٨٦].

فقلت: إنه أسرَّ إليَّ فقال: «إِنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يِعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي، وَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي»، فبَكَيتُ.
فَقَالَ: «أَمَا تَرْضِيَنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، فَضَحَكَتُ لَذَلِكَ»^(١).

وكان يحثها على الذكر والدعاء:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا فَاطِمَةُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أَوْصِيكَ بِهِ؛ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلَحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٢).
«وَلَا تَكْنِي إِلَى نَفْسِي» أَي: لَا تَسْلَمْنِي إِلَيْهَا، وَتَتْرَكْنِي هَمَلًا.
«طَرْفَةَ عَيْنٍ» أَي: غَمَضْتُهَا^(٣).

وكان يصلها بالهبات والأعطيات:

فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَلَّةً مِنْ سِرَاءٍ^(٤)، فَخَرَجْتُ فِيهَا.
فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنِّي لَمْ أَكْسِكُهَا؛ لِتَلْبِسَهَا، اجْعَلْهَا خَمْرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ»^(٥).
«اجْعَلْهَا خَمْرًا» جَمْعُ خَمَارٍ، وَهُوَ غَطَاءُ الرَّأْسِ.
«بَيْنَ الْفَوَاطِمِ» الْمُرَادُ بِالْفَوَاطِمِ: فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ وَالِدَةُ عَلِيٍّ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٦).

(١) رواه البخاري [٢٦٢٤].

(٢) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة [٤٦]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٥٨٢٠].

(٣) فيض القدير [١٤٧/٢].

(٤) الحلة: إزار ورداء، والسراة: من أنواع الحرير.

(٥) رواه البخاري [٢٦١٤]، ومسلم [٢٠٧١]، وأحمد [٧١٢].

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم [٥١/١٤].

وكان يواسي بناته، ويصبرهنَّ عند المصيبة:

فغن أسامةُ بنُ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُرْسِلْتُ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قَبِضَ فَأَتْنَا. فَأَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مَسْمًى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ». فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ تَقْسِمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنِيهَا؛ فَقَامَ، وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ ابْنِ ثَابِتٍ، وَرَجَالٌ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ؛ وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ كَأَنَّهَا شَنُّ^(١). ففَاضَتْ عَيْنَاهُ.

فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟

فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، إِنَّمَا يَرْحُمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءُ»^(٢). وَقَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مَسْمًى» مَعْنَاهُ: الْحُثُّ عَلَى الصَّبْرِ، وَالتَّسْلِيمِ لِقَضَاءِ اللَّهِ.

وَتَقْدِيرُهُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخَذَ مِنْكُمْ كَانَ لَهُ لَا لَكُمْ، فَلَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مَا هُوَ لَهُ؛ فَيَنْبَغِي أَلَّا تَجْزِعُوا كَمَا لَا يَجْزَعُ مَنْ اسْتَرَدَّتْ مِنْهُ وَدِيعَةٌ؛ أَوْ عَارِيَةٌ.

«وَلَهُ مَا أُعْطِيَ» مَعْنَاهُ: أَنَّ مَا وَهَبَهُ لَكُمْ لَيْسَ خَارِجًا عَنْ مَلِكِهِ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ.

(فَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ) مَعْنَاهُ: أَنَّ سَعْدًا ظَنَّ أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْبُكَاءِ حَرَامٌ، وَأَنَّ دَمْعَ الْعَيْنِ حَرَامٌ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَسِيَ فذَكَرَهُ، فَأَعْلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَجْرَدَ الْبُكَاءِ وَالدَّمْعِ بِالْعَيْنِ لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَلَا مَكْرُوهٍ، بَلْ هُوَ رَحْمَةٌ وَفَضِيلَةٌ؛ وَإِنَّمَا الْمَحْرَمُ النَّوْحُ، وَالتَّدْبُّ، وَالبُكَاءُ الْمَقْرُونُ بِهِمَا؛ أَوْ بِأَحَدِهِمَا^(٣).

(١) مَعْنَاهُ: لَهَا صَوْتُ، وَحَشْرَجَةُ كَصَوْتِ الْمَاءِ إِذَا أُلْقِيَ فِي الْقَرْبَةِ الْبَالِيَةِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ [١٢٣٨]، وَمُسْلِمٌ [٩٢٣].

(٣) شَرَحَ النَّوَوِيُّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ [٦/٢٢٥].

وكان يحزن لوفاة أحد من أبنائه أو بناته:

ليعلم من ابتلي بفقد أولاده أن الرسول ﷺ قد فقد جميع ذريته من الذكور والإناث، ولم يبق بعد وفاته إلا فاطمة رضي الله عنها.

وكان هديه ﷺ في وفاة أحد من أولاده رضي الله عنه، أنه كان يحزن لوفاته، وتذرف عيناه الدمع على فراقه، ولا يقول إلا ما يحب الله ويرضى.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه في نبأ وفاة أم كلثوم رضي الله عنها: شهدنا بنت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس على القبر؛ فرأيت عينيه تدمعان^(١).

وهذه ليست دموع جزع، وسخط من قضاء الله، وقدره؛ إنما هي دموع رحمة وشفقة تذرف من عيون الرّحماء.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين^(٢) وكان ظنراً لإبراهيم عليه السلام^(٣).

فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم، فقبله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه^(٤).

فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان.

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟!

قال: «يا ابن عوف، إمّا رحمة».

(١) رواه البخاري [١٢٨٥].

(٢) هو الحداد، ويطلق على كلّ صانع.

(٣) أيّ مرضعاً، وأطلق عليه ذلك لأنّه كان زوج المرضعة، ولأنّه يشاركها في تربيته غالباً.

(٤) أي: يخرجهما، ويدفعها.

ثُمَّ أَتَبَعَهَا بِأُخْرَى^(١).

فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ، وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيَدْخُنُ. [وفي رواية وقد امتلأ البيت دخاناً، فأسرعت المشي بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف أمسك جاء رسول الله ﷺ].
وكان ظنُّه قيناً، فبأخذه فيقبله ثم يرجع.

فلما توفِّي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدِيِّ [أي: في سن الرضاع]، وَإِنَّ لَهُ لظْطَرَيْنِ تَكْمَلَانِ رِضَاعُهُ فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

أي: أنه مات وهو في سنِّ رضاع الثدي، أو في حال تغذيته بلبن الثدي، فهما تتمانه سنتين، فإنه توفِّي وله ستّة عشر شهراً، أو سبعة عشر، فترضعانه بقيّة السنتين، فإنه تمام الرضاعة بنصّ القرآن.

وفيه: بيان كريم خلقه ﷺ ورحمته للعيال والضعفاء.

وفيه: فضيلة رحمة العيال والأطفال وتقبيلهم^(٤).

ومن هديه ﷺ في وفاة بناته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّهُ كَانَ يَشْرَفُ عَلَى تَغْسِيلِهِنَّ وَتَكْفِينِهِنَّ، وَيَصِلُ عَلَيْهِنَّ، وَيَدْفَنِهِنَّ، وَيَقِفُ عَلَى قُبُورِهِنَّ وَيَدْعُو اللَّهَ لَهُنَّ.

(١) أي أتبع الدّمة الأولى بدمعة أخرى.

(٢) رواه البخاري [١٣٠٣]، ومسلم [٢٣١٥].

(٣) رواه مسلم [٢٣١٦].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [٧٦/١٥].

عن أم عطية الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (دخل علينا رسولُ الله ﷺ حينَ توفيتُ ابنته [أم كلثوم]).

فقال: «اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثرَ من ذلك، إن رأيتنَّ ذلكَ بهاءٍ، وسدرٍ، واجعلن في الآخرة كافوراً؛ أو شيئاً من كافور، فإذا فرغتنَّ فأذنيني»^(١).

فلما فرغنا آذناه؛ فأعطانا حقوه - تعني إزاره -؛ فقال: «أشعرنها إياه»^(٢).

أي: اجعلنه شعارها أي: الثوب الذي يلي جسدها.

قيل الحكمة في تأخير الإزار معه إلى أن يفرغن من الغسل، ولم يناولهنَّ إياه أولاً؛ ليكون قريب العهد من جسده الكريم حتى لا يكون بين انتقاله من جسده إلى جسدها فاصلٌ.

فهذه جملة من أحواله مع أولاده ﷺ؛ وما كان عليه من حسن الرعاية والصيانة لهم ﷺ.

(١) أي: أعلمني.

(٢) رواه البخاري [١١٧٥]، ومسلم [٩٣٩].

أولادنا أكبادنا تمشي
 بالحبِّ والإحسانِ ننشئهم
 أعمارنا بذلتْ لهم كرمًا
 نفسي لخيرِ المرسلين فدى
 نعم الأب الحاني لمن ولدا
 لبناته يختارُ محترمًا
 المهرَ والتَّجهيزَ يسره
 موصٍ لها بالزوجِ تكرمهُ
 ليستْ تكلفُ ما يثقله
 يغضي إذا ما كانَ بينهما
 كفاهُ نحوَ بناته جرتا
 وإذا دها حدثٌ يصبرها
 ما زالَ يرعاها برحمته
 فبكى لأجلِ فراقها أسفًا

في الأرضِ ، تحتَ السَّمعِ والبصرِ
 حتّى يكونوا قادةَ البشرِ
 يبقى العطاءُ لآخرِ العمرِ
 انظرْ له بشراً من البشرِ
 لينُ النسيمِ يهبُ في السَّحرِ
 رغباتهنّ مراعي الصَّغرِ
 وحلاوةَ التّزويجِ في اليسرِ
 من غيرِ تنغيصٍ ولا كدرِ
 والصَّبرُ خيرُ عطاءٍ لمصطبرِ
 شيءٌ، فتلكَ طبيعةُ البشرِ
 بالجودِ مثلَ تدفقِ النّهرِ
 وعظاً لها بتحتّمِ القدرِ
 وحنانهِ لنهايةِ العمرِ
 باللهِ إنّك أرحمُ البشرِ



تعامل النبي ﷺ مع أحفاده

كان للنبي ﷺ سبعة من الأحفاد، كما كان له سبعة من الأولاد، وأحفاده هم:

١. الحسن بن علي: وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ، وهو الابنُ البكرُ لعلي بن أبي طالب، وفاطمة، ولدَ في السنة الثالثة من الهجرة، وتوفيَّ سنة (٤٩) من الهجرة، وكان سنّه عند وفاة الرسول ﷺ نحوَ سبعِ سنواتٍ.
٢. الحسين بن علي: الابنُ الثاني لعلي وفاطمة، ولدَ في السنة الرابعة من الهجرة، وتوفيَّ سنة (٦١) من الهجرة.
٣. أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: ولدتُ قبلَ وفاةِ رسول الله ﷺ، تزوّجها عمرُ بنُ الخطاب، فولدتُ له زيدَ بنَ عمر، ورقية. وتوفيَّتْ أمُّ كلثوم وابنها زيد عام (٧٥) من الهجرة.
٤. زينب بنت علي بن أبي طالب: ولدتُ في حياةِ النبي ﷺ، وتزوّجها ابنُ عمّها عبدُ الله بنُ جعفر، فماتتُ عنده، وقد ولدَتْ له، وأولادُ وذريةِ زينب من عبد الله بن جعفرٍ موجودون بكثرةٍ.
٥. عبد الله بن عثمان بن عفان: ابنُ رقية بنتِ الرسول ﷺ، ولدَ بأرض الحبشة، وعاش ست سنين.

٦. أُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ: وهي من زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تزوّجها عليُّ ابنُ أبي طالب بعدَ فَاطِمَةَ، فلم تلدْ، وماتَ عنها، فتزوّجها المغيرةُ بنُ نوفلٍ، فماتت عنده، ولم تلدْ له.

٧. علي بن أبي العاص: وهو أخو أُمَامَةَ بِنْتِ زَيْنَبَ، توفّي وقد ناهز الحلمَ في حياة رسول الله ﷺ.

وهكذا لم يكن للنبي ﷺ عقبٌ إلا من ابنته فَاطِمَةَ، فانتشر نسله الشريفُ من جهة السَّبْطَيْنِ: الحسن والحسين فقط، ويقال للمنسوب للحسن: حسنيٌّ، وللمنسوب للحسين: حسينيٌّ.

ولقد كانت معاملته ﷺ مع أحفاده مليئةً بالعطفِ، والشفقة، والرحمة، فقد كان النبي ﷺ نموذجاً فريداً للأبوةِ الكريمةِ.

وقد حفل تعامله مع أحفاده بالعديد من المظاهر الإنسانيةِ الكريمةِ الرحيمةِ، فيرعاهم ويحوظهم بالعناية الفائقة.

فكان إذا ولد له مولودٌ أذنَ في أذنه اليمنى؛ ليكونَ أولَ ما يطرقُ سمعهُ في الدنيا تمجيدُ الله وتعظيمه.

فعنُ أبي رافعٍ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ أذنَ في أذنِ الحسنِ بنِ عليٍّ، حينَ ولدتهُ فَاطِمَةُ، بالصَّلَاةِ^(١).

ولهذا استحب الكثير من العلماء إذا ولد المولود؛ أول ما يولدُ، أن يؤذّنَ في أذنه حتى يطردَ الشيطانُ عنه، ويكونَ أولَ ما يسمعُ ذكرُ الله عزَّ وجلَّ.

(١) هذا إذا صح الحديث، وقد رواه أبو داود [٥١٠٥] والترمذي [١٥١٤] وصححه الترمذي، والنووي، وابن الملقن، وضعفه ابن حبان، وحسنه الألباني في الإرواء [١١٧٣] ثم تراجع وضعفه في الضعيفة [٦١٢١]. ينظر: المجروحين [١١٠/٢]، المجموع شرح المذهب [٤٣٤/٨]، البدر المنير [٣٤٨/٩]، الكلم الطيب [٢١١].

قال ابن القيم: «وسرُّ التأذين والله أعلم؛ أن يكون أول ما يقرعُ سمعَ الإنسان كلماته المتضمنةُ لكبرياءِ الربِّ وعظمته، والشهادةُ التي أول ما يدخلُ بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعارَ الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يلقنُ كلمةَ التوحيد عند خروجه منها. وغير مستنكرٍ وصول أثر التأذين إلى قلبه، وتأثره به وإن لم يشعر، مع ما في ذلك من فائدةٍ أخرى، وهي هروبُ الشيطان من كلمات الأذان،.. فيسمع شيطانه ما يضعفه، ويغيظه أول أوقات تعلقه به»^(١).

ثم كان ﷺ يحنكهم بعد ذلك:

عن عائشة زوج النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ: كان يؤتى بالصبيان، فيبرك عليهم، ويحنكهم^(٢).

والتحنيك: أن يمضغ التمر، أو نحوه، ثم يدلك به حنك الصغير، ولو حنك بغير التمر؛ حصل التحنيك، ولكن التمر أفضل^(٣).

وحلاوة التمر من أنسب شيء للمولود.

وقد أكد د. محمد على البار عضو هيئة الإعجاز العلمي أن العلم الحديث أثبت الفوائد الصحية للحنك على جسد الطفل الوليد ونموه، وقدم له تفسيراً علمياً مقنعاً.

فقال: إن الأحاديث الواردة في التحنك تدل على أن يكون التمر أو الطعام الحلو أول ما يدخل جوف الطفل.

وقد اكتشف العلم الحديث الحكمة من هذا التحنك بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، فقد

(١) تحفة المودود [ص ٣١].

(٢) رواه مسلم [٢٨٦].

(٣) شرح النووي على مسلم [١٤ / ١٢٤].

تبين حديثاً أن الأطفال حديثي الولادة والرضع معرضون للموت إن حدث لهم أحد أمرين: نقص السكر في الدم، أو انخفاض درجة حرارة الجسم عند التعرض للجو البارد المحيط به. فمستوى السكر (الجلوكوز) في الدم بالنسبة للمواليد يكون منخفضاً، وقد يؤدي إلى أعراض خطيرة منها:

- أن يرفض المولود الرضاعة.

- ارتخاء العضلات.

- توقف متكرر في عملية التنفس.

- حصول زرقة في الجسم. وغير ذلك.

كما قد يؤدي إلى مضاعفات خطيرة مثل تأخر النمو، والتخلف العقلي.

والعلاج سهل، وهو إعطاء السكر الجلوكوز مذاباً في الماء، إما بالفم أو بواسطة الوريد، وهذا هو ما يقوم به التحنيك.

كما أكدت الدراسات العلمية أن في التحنيك تقوية لعضلات الفم بحركة اللسان مع الحنك والفكين حتى يتهيأ المولود للقمّ الثدي^(١).

ومن ناحية أخرى فالعجوة مباركة حيث نزل أصلها من الجنة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «العجوة من الجنة، وهي شفاء من السم»^(٢).

لكنها حينما تنزل إلى الدنيا تتغير بلا شك، فالتمر في الدنيا غير التمر في الجنة.

(١) موقع (إسلام ويب) باختصار وتصرف.

<http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=143055>

(٢) رواه الترمذي [٢٠٦٦]، وابن ماجه [٣٤٥٥]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤١٢٦].

وكان ﷺ يعقُ عنهم:

فعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَقَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحَسَنِ، وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِكَبْشَيْنِ، كَبْشَيْنِ^(١).

العقيقة: هي الذبيحة التي تذبحُ للمولود بعد ولادته: عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة. والعقيقة لها فوائد كثيرة، فهي قربانٌ إلى الله تعالى، وفيها كرمٌ، وهي تفكُّ ارتهانَ المولود. وغيرُ مستبعدٍ أن تكون سبباً لحسنِ إنباتِ الولد، ودوامِ سلامته، وحفظه من ضرر الشيطان^(٢).

وكان يؤخِّرُ العقيقة إلى اليوم السابع:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: عَقَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَسَنِ وَحُسَيْنِ يَوْمَ السَّابِعِ، وَسَمَّاهُمَا^(٣). فيسنُّ أن تذبحَ في اليومِ السابعِ، فإذا ولدَ يومَ السبتِ؛ فتذبحُ يومَ الجمعةِ، يعني: قبل يومِ الولادة بيومٍ، هذه هي القاعدة. وإذا ولدَ يومَ الخميسِ؛ فهي يومَ الأربعاءِ، وهلمَّ جرّاً^(٤).

ومع قوله ﷺ: «الغلامُ مرتينُ بعقيقته، يذبحُ عنه يومَ السابعِ ويسمَّى»^(٥) فكان ﷺ يسمِّي مولوده في يوم ولادته أيضاً؛ كما قال: «ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم...»^(٦).

(١) رواه النسائي [٤٢١٩]، وصححه الألباني في الإرواء [٣٧٩ / ٤].

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود [ص ٦٩].

(٣) رواه ابن حبان [٥٣١١] وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري [٥٨٩ / ٩].

(٤) الشرح الممتع [٤٩٣ / ٧].

(٥) رواه أبو داود [٢٨٣٨] والترمذي [١٥٢٢] وصححه، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٦) رواه مسلم [٣١٢٦].

وأمر بحلق رأس الصبي والتصدق بزنة شعره فضة:

عن أبي رافعٍ مولى رسول الله ﷺ؛ أَنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ لما ولدَ أرادت أمُّه فاطمةُ أنْ تعقَّ عنه بكبشين. فقال: «لا تعقِّي عنه، ولكن احلقي شعرَ رأسه، ثمَّ تصدّقي بوزنه من الورق [أي: الفضة] في سبيلِ الله».

ثمَّ ولدَ حسينٌ بعدَ ذلكَ فصنعتُ مثلَ ذلكَ^(١).

وقوله لها: «لا تعقِّي عنه»؛ لأنه أرادَ أن يتولَّى العقيقة عنه بنفسه.

وعن أنسٍ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ أمرَ برأسِ الحسنِ والحسينِ يومَ سابعهما أنْ يحلقَ، ويتصدقَ بوزنه فضةً^(٢).

وحلقتُ رأسَ الصبيِّ المولودِ مفيدٌ جداً؛ حيثُ أثبتَ الطَّبُّ الحديثُ أنْ حلقَ رأسِ الطفلِ يفتحُ مسامَ فروةِ الرأسِ؛ ويساعدُ على إنباتِ الشعرِ.

ومسحَ رأسَ الولدِ بعدَ حلاقته بالزعفرانِ سنة مهجورة قلَّ من الناس من يفعلها.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كانوا في الجاهلية إذا عقوا عن الصبي خضبوا قطنه بدم العقيقة فإذا حلّقوا رأسَ الصبي وضعوها على رأسه، فقال النبي ﷺ: «اجعلوا مكانَ الدم خلوفاً»^(٣).

وكان يختارُ لهم الأسماءَ الحسنة:

وتلك كانت عادته ﷺ في كل من يسميه، بل كان يغيّر الاسم القبيح إلى الحسن.

(١) رواه أحمد [٢٦٦٥٥] وحسنه الألباني في الإرواء [٤ / ٤٠٣].

(٢) رواه البزار [٦١٩٩]، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد [٤ / ٨٩].

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه [٥٣٠٨] وصححه الألباني في الصحيحة [٤٦٣].

والخلوق: طيبٌ معروفٌ مركبٌ يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة النهاية [٢ / ١٤٤].

وإن من حقِّ الولد على والده، أن يختار له اسماً طيباً.

فيتعد عن الأسماء الأجنبية والرخوة، ويتعد عن الأسماء القبيحة والمستنكرة^(١).

وبال أحد أحفاده في حجره فلم يغضب:

عن لُبَابَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، قَالَتْ: كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَالَ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ: الْبَسْ ثوباً، وَأَعْطِنِي إِزَارَكَ حَتَّى أُغْسِلَهُ.

قَالَ: «إِنَّمَا يَغْسَلُ مَنْ بَوْلِ الْأُنْثَى؛ وَيَنْضَحُ مَنْ بَوْلِ الذَّكَرِ»^(٢).

وَقَالَ أَبُو السَّمْحِ: كُنْتُ أَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْتَسَلَ قَالَ: «وَلَنِي قَفَاكَ»؛ فَأَوْلِيَهُ قَفَايَ؛ فَأَسْتَرَهُ بِهِ.

فَأَتَى بِحَسَنِ؛ أَوْ حُسَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَبَالَ عَلَى صَدْرِهِ.

فَجِئْتُ أُغْسِلُهُ فَقَالَ: «يَغْسَلُ مَنْ بَوْلِ الْجَارِيَةِ، وَيُرْشُ مَنْ بَوْلِ الْغُلَامِ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَى صَدْرِهِ؛ أَوْ بَطْنِهِ الْحَسَنُ؛ أَوْ الْحُسَيْنُ.

(١) ومن الطرائف في موضوع الأسماء: أن موظف المطار قال لامرأة عجوز مسافرة: أعطني اسمك.

قالت: الصلاة على النبي.

قال الموظف: عليه الصلاة والسلام. أعطني اسمك.

قالت: الصلاة على النبي.

قال الموظف مرة أخرى: عليه الصلاة والسلام، أعطني اسمك.

ثم يكتشف أن اسمها: «الصلاة على النبي»!

وقيل لرجل: أنت أبو من؟

فقال: أبو عبد الملك الكريم الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

فقال: مرحباً بك يا نصف القرآن، ارتفع.

(٢) رواه أبو داود [٣٧٥]، وابن ماجه [٥٢٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٢٣٨٣].

وفي هذا الحديث الصحيح دليل صريح على التفرقة بين بول الصبي، والصبيّة، وأن بول الصبي يكفي التّضح بالماء، ولا حاجة فيه للغسل، وأن بول الصبيّة لا بدّ له من الغسل، ولا يكفي التّضح.

(٣) رواه أبو داود [٣٧٦]، والنسائي [٣٠٤]، وابن ماجه [٥٢٦]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٨١١٧].

قال: فرأيتُ بوله أساريع، فقمنا إليه.

فقال: «دعوا ابني، لا تفزعوه حتى يقضي بوله». ثم أتبعه الماء^(١).

(فرأيت بوله أساريع)^(٢).

وهذه الأحاديث تبين مدى سماحة النبي ﷺ، وحبّه لأحفاده، وحسن رعايته لهم.

وكان ﷺ يعوذ أحفاده

عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يعوذُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ، يَقُولُ: «أَعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ؛ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ، وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ»، وَيَقُولُ: «هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يعوذُ إِسْحَاقَ، وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(٣).

«بِكَلِمَاتِ اللَّهِ»: قِيلَ: هِيَ الْقُرْآنُ، وَقِيلَ أَسْمَاؤُهُ، وَصَفَاتُهُ.

«التَّامَّةِ»: إِنَّمَا وَصَفَ كَلَامَ اللَّهِ بِالتَّامِ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِهِ نَقْصٌ، أَوْ عَيْبٌ كَمَا يَكُونُ فِي كَلَامِ النَّاسِ.

وقيل: معنى التَّامِ هَاهُنَا أَنَّهَا تَنْفَعُ الْمُتَعَوِّذَ بِهَا، وَتَحْفَظُهُ مِنَ الْآفَاتِ، وَتَكْفِيهِ.

«مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ»: يَدْخُلُ تَحْتَهُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

«وَهَامَّةٌ»: الْهَامَةُ: كُلُّ ذَاتِ سَمٍّ يَقْتُلُ، وَالْجَمْعُ: الْهُوَامُ، فَأَمَّا مَا يَسْمُ وَلَا يَقْتُلُ، فَهُوَ السَّامَةُ كَالْعَقْرِبِ وَالزَّنْبُورِ.

«وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ»: أَيُّ: مِنْ عَيْنٍ تُصِيبُ بِسُوءٍ^(٤).

(١) رواه أحمد [١٨٥٨٠]، وقال الهيثمي في المجمع [١/ ٦٣١]: رجاله ثقات، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٢) أي طرائق، الواحد أسروع، سمي لا طرده، من السرعة، وهي أن تطرد الحركات؛ من غير أن يتخللها سكون وتوقف. الفائق في غريب الحديث [٢/ ١٧١].

(٣) رواه البخاري [٣٣٧١]، والترمذي [٢٠٦٠]، واللفظ له.

(٤) تحفة الأحوذى [٦ / ١٨٤].

قال الخطابي: «المراد به: كل داء وآفة تلم بالإنسان من جنونٍ وخبلٍ»^(١).

وكان يعلمهم بعض الأدعية التي يدعون بها:

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن تولّيت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرّ ما قضيت، فإنك تقضي، ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت»^(٢).

وكان يأخذهم معه إلى المسجد:

قال أبو بكر: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن بن عليّ إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرةً، وعليه أخرى، ويقول: «إنّ ابني هذا سيّدٌ، ولعلّ الله أن يصلح به بينَ فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣).

وعن بريدة بن الحصيب قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران، يعثران ويقومان.

فنزل، فأخذهما، فصعد بهما المنبر، ثم قال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، رأيت هذين فلم أصبر» ثم أخذ في الخطبة^(٤).

«يعثران» أي: يمشيان مشي صغير؛ يميل في مشيه تارةً إلى هنا، وتارةً إلى هنا؛ لضعفه في المشي، فحملهما؛ وهو من كمال ما وضع الله تعالى فيه صلى الله تعالى عليه وسلّم من الرحمة^(٥).

(١) فتح الباري [٦/ ٤١٠].

(٢) رواه الترمذي [٤٦٤]، وصححه الألباني في الإرواء [٤٢٩].

(٣) رواه البخاري [٢٧١٤].

(٤) رواه أبو داود [١١٠٩]، والترمذي [٣٧٧٤]، والنسائي [١٤١٣]، وابن ماجه [٣٦٠٠]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٠١٦].

(٥) حاشية السندي على النسائي [٣/ ١٠٨].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] أي: تشغل البال عن القيام بالطاعة، وظاهر الحديث أن قطع الخطبة والنزول لهما فتنة، دعا إليها محبة الولد، على أن الفتنة بالولد مراتب، وهذا من أدناها، وقد يجزئ إلى ما فوقه فيحذر^(١).

وفي هذا الحديث: بيان رحمته ﷺ، وجهه لأحفاده.

ومن ذلك أنه كان يحمل بعضهم أثناء الصلاة:

عن أبي قتادة الأنصاري قال: رأيت النبي ﷺ يؤمُّ النَّاسَ، وأمامه بنت أبي العاص، وهي ابنة زينب بنت النبي ﷺ على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها^(٢).

ويحتمل ما قد يصدر منهم أثناء الصلاة:

عن شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا.

فتقدّم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلّى.

فسجد بين ظهرانيّ صلاته سجدة أطاها.

قال شداد: فرفعت رأسي^(٣)، وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي.

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سجدت بين ظهرانيّ صلاتك سجدة أطلتها؛ حتى ظننا أنه قد حدث أمر^(٤)، أو أنه يوحى إليك.

(١) فتح الباري [٢٥٤ / ١١] مختصراً.

(٢) رواه البخاري [٥١٦]، ومسلم [٥٤٣]، واللفظ له.

(٣) فلو أن مصليا ظن أن الإمام قد حدث له شيء فرفع رأسه ليطمئن عليه، ثم رجع إلى سجوده فصلاته صحيحة. وكذلك لو رفع رأسه يظن أن الإمام كبر، فلما رأى أن الإمام ما زال ساجداً عاد إلى سجوده، فصلاته صحيحة.

(٤) كناية عن الموت أو المرض.

قَالَ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ ابْنِي ارْتَحَلَنِي»^(١)، فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْجَلُهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»^(٢).

ويُثَبُّ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ فَلَا يَغْضَبُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا نَصَلِّيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ، فَإِذَا سَجَدَ وَثَبَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ أَخَذَهُمَا بِيَدِهِ مِنْ خَلْفِهِ أَخْذًا رَفِيقًا، وَيَضَعُهُمَا عَلَى الْأَرْضِ، فَإِذَا عَادَ عَادَا، حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ أَقْعَدَهُمَا عَلَى فَخْذَيْهِ.

قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدَّهُمَا.

فَبَرَقَتْ بَرَقَةً^(٣) فَقَالَ لَهَا: «الْحَقَّا بِأُمَّكُمَا».

قَالَ: فَمَكَثَ ضَوْءُهَا حَتَّى دَخَلَ عَلَى أُمِّهِمَا^(٤).

وَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَصَلِّي، فَإِذَا سَجَدَ وَثَبَ الْحَسَنُ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى عُنُقِهِ، فِيرْفَعُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفْعًا رَفِيقًا؛ لَثَلًا يَصْرَعُ.

قَالَ: فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ.

فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ بِالْحَسَنِ شَيْئًا مَا رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَهُ.

قَالَ: «إِنَّهُ رِيحَانَتِي مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَعَسَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَصْلَحَ بِهِ بَيْنَ فَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(٥).

وَالْحَدِيثُ فِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ إِدْخَالِ الصِّبْيَانِ الْمَسَاجِدِ؛ وَأَمَّا حَدِيثُ: «جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ

(١) اتَّخَذَنِي رَاحِلَةً لِي بِالرَّكُوبِ عَلَى ظَهْرِي.

(٢) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ [١١٤١]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ سُنَنِ النَّسَائِيِّ [١١٤١].

(٣) أَي: لَمَعَ بَرَقَ فِي السَّمَاءِ.

(٤) رَوَاهُ أَحْمَدُ [١٠٢٨١] وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ [٣٣٢٥].

(٥) رَوَاهُ أَحْمَدُ [١٩٩٩٤]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الشَّرْحِ الْمُسْتَطَابِ [١ / ٧٥٧].

صبيانكم، ومجانينكم» فهو ضعيف، رواه ابن ماجه (٧٥٠) عن واثله بن الأسقع، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٣٦).

فتعامله ﷺ مع أحفاده كان مبنياً على الرأفة، والرحمة؛ فالطفل الصغير يحتاج إلى الحب، والعطف، والحنان من والديه؛ كما يحتاج إلى الطعام، والشراب، فالغذاء العاطفي ضروري جداً لبناء شخصية سوية غير مضطربة.

ولقد كان النبي ﷺ شديد الحب لهم:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنَ النَّهَارِ لَا يَكْلُمُنِي، وَلَا أَكْلِمُهُ؛ حَتَّى جَاءَ سَوْقُ بَنِي قَيْنِقَاعَ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ؛ حَتَّى أَتَى خَبَاءَ فَاطِمَةَ.

فَقَالَ: «أَنْتُمْ لَكُعٌ، أَنْتُمْ لَكُعٌ؛ يَعْنِي حَسَنًا»^(١).

فَظَنْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا تَحَبَّسَهُ أُمُّهُ لِأَن تَغَسَّلَهُ وَتَلْبَسَهُ سَخَابًا^(٢).

فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ جَاءَ يَسْعَى حَتَّى اعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَاحِبَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ^(٣).

قال النووي: (جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه) فيه: استحباب ملاطفة

الصبي ومداعبته رحمة له، ولطفًا، واستحباب التواضع مع الأطفال، وغيرهم.

(١) اللكع يطلق على معنيين أحدهما الصغير، والآخر اللثيم، والمراد هنا الأول.

(٢) السخاب: هو خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري. وقيل هو قلادة تتخذ من قرنفل ونحوه، وليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء. النهاية [٣٤٩/٢].

(٣) رواه البخاري [٥٨٨٤] ومسلم [٢٤٢١].

وفي الحديث: جواز لباس الصبيان القلائد والسخب، ونحوها من الزينة، واستحباب تنظيفهم لا سيما عند لقائهم أهل الفضل^(١).

وقد كان الحفيدان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رِيحَانِيَهُ مِنَ الدُّنْيَا:

قال ابنُ عمر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ هُمَا رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢). والمعنى: أنهما ممَّا أكرمني الله، وحباني به؛ لأنَّ الأولاد يشمُّون، ويقبَلون فكأنَّهم من جملة الرِّياحين.

وقوله: «من الدُّنْيَا» أي: نصيبي من الرِّيحان الدُّنيوي^(٣).

وكان يقبل أطفاله ويضمهم إلى صدره:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا.

فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحُمُ لَا يَرْحَمُ»^(٤).

«وفي جواب النَّبِيِّ ﷺ لِلأَقْرَعِ إشارةٌ إلى أَنَّ تَقْبِيلَ الْوَلَدِ إِنَّمَا يَكُونُ لِلشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَكَذَا الضَّمُّ وَالشَّمُّ وَالْمَعَانِقَةُ»^(٥).

(١) شرح النووي على مسلم [١٥ / ١٩٣] بتصرف.

(٢) رواه البخاري [٣٧٥٣]، والترمذي [٣٧٧٠]، واللفظ له.

(٣) فتح الباري [١٠ / ٤٢٧].

(٤) رواه البخاري [٥٩٩٧]، ومسلم [٢٣١٨].

(٥) فتح الباري [١٠ / ٤٣٠].

ويحمل أحفاده على عاتقه:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَهُ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ هَذَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَهَذَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَهُوَ يَلْثُمُ هَذَا مَرَّةً، وَيَلْثُمُ هَذَا مَرَّةً^(١).

حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَحِبُّهُمَا.

فَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّهُمَا؛ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا؛ فَقَدْ أَبْغَضَنِي»^(٢).

وَإِذَا قَارَنْتَ حَالَ النَّبِيِّ ﷺ بِحَالِنَا الْيَوْمَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ أَوْلَادِنَا رَأَيْتَ الْعَجَبَ الْعَجَابَ، فَالكَثِيرُونَ تَرَكَوا الرِّعَايَةَ وَالْمَدَاعِبَةَ لِأَطْفَالِهِمْ عَلَى عَاتِقِ الْخَادِمَاتِ، فَيَصْبُحُ الطِّفْلُ وَيَمْسِي، وَهُوَ فِي أَحْضَانِ تِلْكَ الْأُمِّ الْمَصْطَنَعَةِ، لَا يَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَى حَنَانِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ.

حَتَّى لُغَةُ الطِّفْلِ تَبْدُو ضَعِيفَةً وَرَكِيكَةً، وَلَا يَكَادُ صَغَارُ الْيَوْمِ الَّذِينَ نَشْتَوُا فِي أَكْنَافِ الْخَادِمَاتِ يَفْصَحُونَ الْقَوْلَ؛ وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى تَأْثِيرِ الْخَادِمَاتِ عَلَيْهِمْ.

ويسيل لعاب حفيده عليه فلا ينزعج من ذلك:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ حَامِلَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ، وَلِعَابُهُ يَسِيلُ عَلَيْهِ^(٣).

بل كان يمصُّ شفة الحسن:

عَنْ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمصُّ لِسَانَهُ أَوْ قَالَ شَفْتَهُ؛ يَعْنِي الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَنْ يَعَذَّبَ لِسَانٌ أَوْ شَفَتَانِ مَصَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٤).

(١) يعني: يقبل

(٢) رواه ابن ماجه [١٤٣]، وأحمد [٩٣٨١]، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٨٩٥].

(٣) رواه ابن ماجه [٦٨٥]، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٥٣٦].

(٤) رواه أحمد [١٦٤٠٦]، وصححه شعيب الأرنؤوط.

ويركبهم معه، على دابته:

عن عبد الله بن جعفر قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تَلَقَّى بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسَبَقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنِي فَاطِمَةَ، فَأَرَدَهُ خَلْفَهُ^(١).

وعن إياس بن سلمة عن أبيه، قَالَ: لَقَدْ قَدْتُ بَنِيَّ اللَّهَ ﷺ، وَالْحَسَنَ، وَالْحُسَيْنَ، بِغَلْتِهِ الشَّهْبَاءَ، حَتَّى أَدْخَلْتَهُمْ حَجْرَةَ النَّبِيِّ ﷺ، هَذَا قَدَامُهُ، وَهَذَا خَلْفُهُ^(٢).

وكان ﷺ يلاعب الأطفال، ويضاحكهم:

عن سعيد بن أبي راشد أن يعلى بن مرة حدثهم: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى طَعَامٍ دَعَا لَهُ. فَإِذَا حَسِينٌ يَلْعَبُ فِي السَّكَّةِ.

فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَامَ الْقَوْمِ، وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُّهَا هُنَا، وَهَذَا هُنَا، وَيَضَاحِكُهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهُ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ، وَالْأُخْرَى فِي فَأْسِ رَأْسِهِ^(٣) فَقَبَّلَهُ.

وَقَالَ: «حَسِينٌ مِنِّي، وَأَنَا مِنْ حَسِينٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حَسِينًا، حَسِينٌ سَبُطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ»^(٤).

«حَسِينٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حَسِينٍ» أَي: بَيْنَا مِنَ الْإِتِّحَادِ وَالِاتِّصَالِ مَا يَصَحُّ أَنْ يُقَالَ كُلُّ مَنْهَا مِنَ الْآخَرِ.

«حَسِينٌ سَبُطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ» أَي: أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَيْرِ؛ وَالْأَسْبَاطُ فِي أَوْلَادِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ بِمَنْزِلَةِ الْقَبَائِلِ فِي وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ.

(١) رواه مسلم [٢٤٢٨].

(٢) رواه مسلم [٢٤٢٣].

(٣) هو طرف مؤخره المنتشر على القفا.

(٤) رواه ابن ماجه [١٤٤] والترمذي [٣٧٧٥] مختصراً، وحسنه الألباني في الصحيحة [١٢٢٧].

ويحتمل أن يكون المراد: أنه يتشعب منه قبيلة، ويكون من نسله خلق كثير، فيكون إشارة إلى أن نسله يكون أكثر وأبقى، وكان الأمر كذلك^(١).

ويدعو لهم بالرحمة:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يأخذني، فيقعدني على فخذيه، ويقعد الحسن على فخذيه الأخرى ثم يضمهما. ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»^(٢).

وإذا أتاه شيء من الهدايا؛ فلأحفاده منها نصيب:

لما كان للهدية أثر طيب في النفس البشرية عامة، وفي نفوس الأطفال خاصة، كان النبي ﷺ يتحف أحفاده بالهدايا.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت على النبي ﷺ حلية من عند النجاشي أهداها له؛ فيها خاتم من ذهب، فيه فص حبشي.

قالت: فأخذه رسول الله ﷺ بعودٍ معرضاً عنه أو ببعض أصابعه. ثم دعا أمانة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب فقال: «تحلي بهذا يا بنية»^(٣).

وكان يريهم منذ الصغر على ترك المحرمات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنه تمر من تمر الصدقة، فجعلها في فيه. فقال النبي ﷺ: «كخ كخ»؛ ليطرحها.

(١) تحفة الأحوذى [١٠/١٧٨].

(٢) رواه البخاري [٦٠٠٣].

(٣) رواه أبو داود [٤٢٣٥]، وابن ماجه [٣٦٤٤]، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٩٣٩].

ثُمَّ قَالَ: «أَمَا شَعَرْتُ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»^(١).

«كَخْ كَخْ» هِيَ كَلِمَةٌ يَزْجُرُ بِهَا الصَّبِيَانُ عَنِ الْمُسْتَقْدِرَاتِ، فَيَقَالُ لَهُ: (كَخْ) أَي: اتْرُكْهُ.
وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ الصَّبِيَانَ يُوَقِّوْنَ مَا يُوَقَّاهُ الْكِبَارُ، وَتَمْنَعُ مَنْ تَعَاطِيهِ، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى الْوَلِيِّ.

وَفِيهِ: تَأْدِيبُهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْعُهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ وَمَنْ تَنَاوَلَ الْمَحْرَمَاتِ، وَإِنْ كَانُوا غَيْرَ مَكْلَفِينَ لِيَتَدَرَّبُوا بِذَلِكَ^(٢).

الولد مجبنةً مبخلَةٌ:

عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ يُسْعِيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»^(٣).

أَي: لِأَجْلِهِ يَبْخُلُ الْإِنْسَانُ وَيَجْبُنُ، فَقَدْ يَحْمِلُ حُبُّ الْوَلَدِ الْإِنْسَانَ عَلَى أَنْ يَبْخُلَ بِمَالِهِ، وَيَحْمِلَهُ عَلَى الْجُبْنِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْمَوْتِ لِأَجْلِهِمْ^(٤).

وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى شِدَّةِ حُبِّهِ ﷺ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؛ حَيْثُ ضَمَّهُمَا، وَقَالَ مَا قَالَ.

فَهَذِهِ حَالُهُ ﷺ مَعَ أَحْفَادِهِ؛ كَيْفَ كَانَ يَشْمَلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ، وَحُبِّهِ، وَعُطْفِهِ، وَرِعَايَتِهِ، ﷺ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ [١٤١٩]، وَمُسْلِمٌ [١٠٦٩].

(٢) شَرْحُ النَّوَوِيِّ [١٧٥/٧]، فَتْحُ الْبَارِيِّ [٣/٣٥٥].

(٣) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ [٣٦٥٦]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ [١٩٨٩].

(٤) حَاشِيَةُ السَّنَدِيِّ [٧/٧٢].

وأعزُّ مَنْ أولادنا الأحفادُ
 نحكي لهم مجدَّ الصَّحابةِ علَّهم
 خيرُ الجدودِ الرَّاحمينَ نبينا
 ولدَ الحفيْدُ ، فكانَ بشريَّ جدِّه
 ويصبُّ في أذنِ الوليدِ أذانهُ
 بالتمرِّ والرَّيقِ اللَّذيدِ محنكاً
 بالحسنِ سَمَاهمَ ، فأحسنَ وصفهم
 ويعقُّ عنهم بالكباشِ مفدياً
 كمُ كانَ حجرُ المصطفى مهداً لهم
 وانظرَ أمانةَ فوقَ عاتقِ جدِّها
 بدعاهُ يرقِيهم ، ويمسحُ فوقهم
 ويضمُّهم من حُبِّهم في صدره
 حتَّى يقبلهم ويمسحَ خدَّهم

وهمُ لنا الأرواحُ والأكبَادُ
 يستبسلونَ وترجعُ الأمجادُ
 أحفادهُ الأسباطُ والأسياذُ
 ويدهُ للطفِ الوليدِ مهادُ
 عذباً بهِ يستفتحُ الميلادُ
 ما مثلهُ بينَ البريةِ زادُ
 والحسنُ في وسمِ الوليدِ مرادُ
 ومبشراً ، فكأنَّها أعيادُ
 حتَّى ولوْ بالوا عليه وعادوا
 صلَّى بها ، فلتحملِ الأحفادُ
 والطفُ قد يغرى بهِ الحسادُ
 ويفيضُ بالتَّحنانِ منه فؤادُ
 هل مثلُ ذاكَ تعطفُ وودادُ

